

الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

الجزء الثالث من المجلد الاول

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

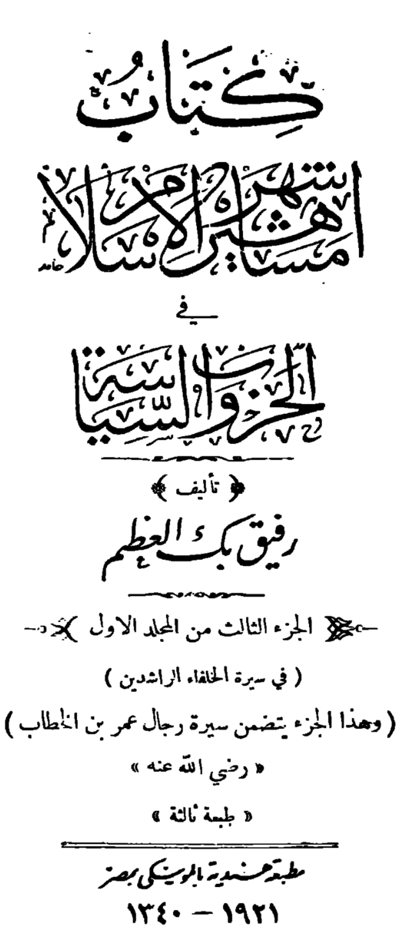
(وهذا الجزء يتضمن سيرة رجال عمر بن الخطاب)

« رضي الله عنه »

« الطبعة الثالثة »

مطبعة الهندية بمصر

١٣٤٠ - ١٩٢١



كتاب
أشهر مشاهير الإسلام
في
الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

الجزء الثالث من المجلد الاول

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة رجال عمر بن الخطاب)

« رضي الله عنه »

« طبعة ثالثة »

مطبعة هندية بالموسكي بمصر

١٣٤٠ – ١٩٢١

أبو عبيدة بن الجراح

(باب)

حاله في الجاهلية

(نسبه وأصله)

اسم أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال بن أُهيب بن ضبّة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزَيْمَة اشتهر بكنيته ونسبه الى جده فيقال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الامة وأحد العشرة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض : وروى ابن عساكر ان أمه أُميمة بنت غُنْم بن جابر بن عبد العزّي بن عامر ابن عميرة وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر وأدركت أمه الاسلام وأسلمت : وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن محمد ابن سعد : قال في الطبقة الاولى من بني فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ـ وهم آخر بطون قريش ـ أبو عبيدة بن الجراح

(سيرته في قومه ومكانته عندهم)

كان أبو عبيدة محترما فى قومه مستشارا فيهم معروفا بالرأى والدهاء وكان يقال كما روى ابن عساكر فى تاريخه « داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح » ولم نقف على زيادة تفصيل من سيرته في الجاهلية فنحن نكتفي عن ذلك بسيرته في الاسلام فان فيها ما يغني وهي المطلوب في كتابنا هذا

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

أبو عبيدة قديم الاسلام ومن السابقين الذين كشف عن بصائرهم حجاب الغفلة وانتزعوا من أعماق النفوس آثار الجهل والجاهلية مذ دعاهم داعي الحق الى التوحيد . واستبان لهم طريق الخلاص من ربقة التقليد . فقد أخرج الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن يزيد بن رومان قال : انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبدالاسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه فاسلموا في ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم وقبل أن يدعو فيها . وكان اسلامهم كما في بعض الروايات بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين

صحبته

أسلم أبو عبيدة مخلصاً لله في اسلامه فكان قويًا في دينه صادقًا في صحبته متفانيًا في حب نبيه حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمين هذه الامة

أخرج الحافظ الجزري في أسد الغابة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين وانّ أميننا أيتها الامة أبو عبيدة بن الجراح » : وهذا مقام من الثقة لا يبلغه عند الرسول (ص) الاّ من عرف حقيقة دينه واستمسك بعروته وأخلص لله في سره وعلانيته ولقد كان يغبطه على هذه المنزلة كثير من كبار الصحابة رضى الله عنه وعنهم أجمعين

أخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران الى النبي صلى

الله عليه وسلم فقالوا : ابعث لنا رجلا أميناً : فقال : « لابعثن اليكم أميناً حق أمين » : فاستشرف لها الناس (أى تطلعوا) فبعث أبوعبيدة بن الجراح

وفي رواية جاء العاقب والسيد صاحبا نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يارسول الله ابعث معنا أميناً حق أمين فقال رسول الله « نبعث معكما رجلا أمينا حق أمين فاستَشرَفَ لها أصحاب محمد قال قم يا أبا عبيدة »

وانما نال أبو عبيدة هذه الحظوة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لصدقه واتباعه أمره وعظيم حبه وطاعته له ومن أعظم ما يؤثر عنه من ذلك ما رواه الحافظ الجزري في أسد الغابة وابن عساكر في تاريخه أنّ أباعبيدة لما كان ببدر يوم الوقعة جعل أبوه (وكان مع المشركين) يتصدّى له وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر أبوه تصده قتله أبو عبيدة فانزل الله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون به واليوم الآخر يوادُّونَ من حاد الله ورسوله ولو كانوا أباءهم أو أبناءهم) الآية

هذا غاية ما يؤثر من صدق ايمان أصحاب نبي بنبيهم واشراب قلوبهم بغض الشرك وتيقنهم أنّ الاسلام فوق العواطف وآية التوحيد تمحو صفحات القلوب حتى صورة الآباء اذا لم تشاكل بطهارة الايمان الابناء

لا جرم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدعُ أبا عبيدة بأمين هذه الامة الاّ لعلمه بصدق ايمانه وكمال يقينه لهذا روي انه صلى الله عليه وسلم طعن في خاصرة أبى عبيدة وقال : أن ههنا خويصرة مؤمنة : رواه ابن عساكر عن جابر . وروي عن موسى بن عقبة قال : قال أبوبكر الصديق: سمعت رسول الله (ص) قال لابي عيدة ثلاث كلمات لأن يكون قالهن لي

أحبّ اليّ من حمر النعم : قالوا وما هن ياخليفة رسول الله (١) قال كنا جلوسا عند رسول الله فقام أبو عبيدة فأتبعه رسول الله بصره ثم أقبل علينا فقال : « انّ ههنا لكتفين مؤمنتين » (٢) وخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتحدث فسكتنا فظن اننا كنا في شيء كرهنا ان يسمعه فسكت ساعة لا يتكلم ثم قال : « ما من أصحابي الاّ وقد كنت قائلا فيه لا بد الاّ أبا عبيدة » (٣) وقدم علينا وفد نجران فقالوا : يامحمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه . فقال « والذي بعثني بالحق لارسلن معكم القويّ الامين » قال أبو بكر : فما تعرضت للامارة غيرها فرفعت رأسي لأريه نفسي « فقال قم يا أبا عبيدة » فبعثه معهم : وشهد أبو عبيدة المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن ثبت مع رسول الله (ص) يوم أحد ونزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله من المغفر يومئذ فانتزعت ثنيتاه فحسنتا فاه وصار أهتماً فما رؤي قط أحسن منه هتما

وبالجملة فقد صحب أبو عبيدة (رض) النبي خير صحبة وكان كما روى المحدثون من علية أصحابه وأعاظم المقربين منه ولاقى من قريش في صحبته مالاقاه أهل الهجرة وهاجر الى الحبشة الهجرة الثانية ثم هاجر الى المدينة وكان ملازما لرسول الله شديد التمسك بأوامره حريصا على رضاه فتخلق باخلاقه ووقف على حقيقة دينه فكان من التقوى والرفق والزهد والتمسك بالاسلام والحنو على المسلمين على جانب عظيم ولو بقي حيًّا لولي الخلافة لما اتصف به من حسن الشيمة وكرم الاخلاق والتقوى والعدل فقد أخرج ابن عساكر عن عمر بن الخطاب انه قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت فان سئلت عنه قلت استخلفت أمين الله

وأمين رسوله

ثم كان له بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من الاثر فى فتوح الشام مابسطناه للقارئ فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وما ستتلوه عليه مجملا فيما يلي إن شاء الله

﴿ باب ﴾

حروبه وفتوحاته

(بالشام)

علمنا مما تقدم فى الجزء الاول والثاني ان أبا بكر رضي الله عنه سلم ابا عبيدة قيادة جيش من الجيوش التي وجهها الى الشام وامره بقصد حمص وانه ولي قيادة الجيش العامة لما استخلف عمر رضي الله عنه وعزل عن امارة الجيش خالد بن الوليد وقد اختلف المؤرخون في هل ولي الامارة وهو فى اليرموك أو على دمشق وذكرنا فى الجزء الثاني رأينا فى هذا الخلاف فلا حاجة هنا للمزيد وقد فصلنا ثمة أخبار حروبه في الشام وفتوحه فيه وانما أحببنا ان نورد هنا مجمل فتوحه لعلاقة ذلك بترجمة هذا الصحابي الجليل والبطل الكبير فنقول

أول فتح عظيم كان لأبي عبيدة فتح دمشق التي فتحها بعد حصار سبعين ليلة وكان فتحها من جانبه صلحاً ومن جانب خالد بن الوليد عنوة وكان وهو على دمشق يسرح الجنود وعليها الامراء لكي يشغلوا جيوش الروم عن امداد دمشق كما ذكر فى محله من الجزء الثاني من هذا الكتاب حتى تيسر له فتحها بعد عناء شديد لقيه القواد المحاصرون معه لدمشق وبعد فتح دمشق استخلف عليها أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان ثم سار الى

فحل من أرض الاردن وفل هناك جيوش الروم وأتى بيسان وطبرية وحاصرهما فصالحا على صلح دمشق ثم بعد ان وجه يزيد أبي سفيان الى سواحل دمشق سار الى حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن الاسود الكندي وقدّم خالدا الى البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه وكتب لهم بذلك كتابا ثم ذهب الى حمص فافتتحها أيضا ثم رجع من هناك الى اليرموك أو أجنادين لنجدة عمرو بن العاص كما مر الخبر عن هذا وعن خلاف المؤرخين فيه في الجزء الثاني ثم سار الى حماه فصالحه أهلها ثم سار الى حلب وقدم خالدا الى قنسرين وعبادة ابن الصامت الى اللاذقية ثم ترك حصار حلب وسار الى حاضرها فافتتحه ثم صار الى انطاكية وجيوشه تحاصر حلب فكتب اليها عمر بالرجوع الى حلب واتمام الفتح فعاد وفتحها ثم رجع الى انطاكية فحاصرها وفتحها صلحا ثم سير جيوشه تضرب في الشمال والشرق حتى أتمت فتح سورية وبلغت الفرات شرقا وآسيا الصغرى شمالا وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا ورتب فيها المرابطة والجيوش ونظم شؤون البلاد وبسط على أهلها جناح الرأفة والعدل وعاملهم بما اشتهر عنه من اللين والاناة والرفق حتى بات سلطان المسلمين احب اليهم من سلطان الروم فكانوا عونا لهم على الفتح ونصراء على العدو كما رأيت ذلك في أخبار فتح حمص من سيرة عمر بن الخطاب وانما كان هذا ببركة اختيار عمر بن الخطاب للامارة هذا الرجل العظيم وأمثاله من الامراء والعمال الذين كان يوليهم امور البلاد ويوسد اليهم قيادة الجيوش ومن لهم بمثلهم ومثله في هذا العصر بل وفي كل عصر

كلمة في العمال

اعلم ان عمران الممالك وترقي الدول يتوقف على امرين عظيمين هما صبغة الحكومة وامانة الرجال فالحكومة اذا كانت ذات صبغة دستورية اي حكومة مقيدة برأي الامة خاضعة لسلطة الشورى سعدت بها المملكة لغلبة الامانة في رجالها على الخيانة والعدل على الظلم وانما تغلب الامانة الخيانة في رجال هذه الحكومة لما هناك من الهيمنة الشرعية على الحاكم من المحكوم اذ الظلم كمين في النفس القوة تظهره والعجز يخفيه وانما يمنع النفوس ان تنزع منازع الظلم مانع القوة وهو هيمنة الشعب القانونية هذا في الحكومات الشورية واما الحكومات المطلقة فمانع تلك النفوس عن الظلم احد امرين : اما الزاجر النفسي وهو الشعور الديني الناشئ عن الورع والتقوى الباعثين على الخوف من بارئ النفوس : واما سيطرة السلطان وهذه لا تكون في الحكومات المطلقة الا من امير مستبد عادل اذ المستبد الظالم شأنه مع عماله شأنهم مع الرعية فلا سيطرة له على العمال ولا يرجى منه الخير

ومما لا مشاحة فيه ان الحكومة الاسلامية في مبدأ ظهورها كانت كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب تشبه من بعض الوجوه الحكومة الشورية كما أنها لم تخلو من صبغة استبدادية وكيف ما كان حالها فقد علمنا ان العمال احوج ما يكونون الى المراقبة ليقوم بهم عمران البلاد وتنتظم شؤون المملكة وسواء قدّرنا انّ هيمنة عمر بن الخطاب الشديدة على عماله كانت مستمدة من قوة السلطة المطلقة او من قوة السلطة القانونية او مشتركة بينهما فقد ساعده مانع القوة اي قوة الهيمنة الشرعية ومانع الدين على ان

ينزع من نفوس العمال آثار الظلم ويبسط بواسطتهم للرعية بساط الطمأنينة والعدل لتمهد للمسلمين سبل الفتح ويرتاح الشعوب المغلوبون لحكم الاسلام ويتفيئوا ظلال السكون ويتبسطوا في مناحي العمران فما كان يختار للحكم والامارة الا احد رجلين رجل له دين يردعه ، أو رجل عنده خوف يمنعه ، وكلا الرجلين بالاضافة الى غرض الرعية والامام واحد .

فمن عماله الذين كان لهم دين يردعهم أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره ومع ما عرف عن هذا الصحابي الجليل والعامل الأمين والقائد العظيم من الإناة والرفق ولين الجانب والورع والزهد فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يتساهل معه بحق من حقوق الهيمنة عليه والنظر في سيرته كما لم يتساهل مع غيره ايضا ممن هو في طبقته في الورع أو من دونه فيه وذلك قياماً على أوامر الشريعة واداء لحق الهيمنة على تمشية قوانين الشرع على نهج السداد وحرصاً على رضى الله والرعية

روى ابن عساكر ان عمر بن الخطاب أرسل الى أبي عبيدة باربعة آلاف درهم أو اربعمائة دينار وقال للرسول انظر ما يصنع فقسمها أبو عبيدة ثم ارسل بمثلها الى معاذ فقسمها معاذ الا شيئاً قالت له امرأته : نحتاج اليه : فلما اخبر الرسول عمر قال الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا

هكذا كان عمر يمتحن حتى اتقى عماله وارفقهم بالرعية وآمنهم على أمور الناس وأحكام الشرع لهذا بلغ العدل في عصره غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد وامتد سلطان المسلمين على قسم عظيم من الارض لم يسمع لسكانه شكوى من خيانة عامل في عمله وظلم في حكمه بل كانت الرعية قاطبة راضية عن حكم الاسلام متمتعة بالراحة آخذة في طريق الصعود الى قمم

السعادة الاجتماعية، والحياة المدنية، آمنة من شرور الفتن التي يضطرب لها حبل الدولة ويختل نظام الاجتماع ومن تصفح تاريخ الاسلام ووقف على اخبار دوله لا يرى سبباً لاختلال امر دولة قط الا خيانة العمال وجورهم وتساهل الملوك في الاخذ على ايديهم اما بحكم الضرورة أو بحكم الضعف وسوء السياسة شأن كل الدول ايضاً لا دول الاسلام وحدها. وانا لنعجب من غلو بعض المؤرخين في ذم الحجاج بن يوسف الثقفي عامل دولة بني مراون على العراق وانما يحوج الى الحجاج من هو مثل الحجاج اذ العامل الخائن اذ افسد قلوب الرعية بجوره وقبح سيرته يثير في نفوسها ثائرة البغضاء على الدولة ويحفظ عليها قلوب الامة فتستعدي على الحاكم ويخرج امتلاك ازمتها عن طوق الدولة الا باستعمال مثل الحجاج قوي الشكيمة قليل الرأفة هذا في الدول المطلقة كدولة الامويين واما في الدول المقيدة فقلّ ان يكون شيء من هذا وذاك وعلى تقدير حصوله فالرأفة تقوم مقام العنف والعدل يغني عن استعمال القوة والانسان اسير الاحسان وغاية مايرمى اليه الطمأنينة والامان وحسبك شاهدا على هذا ان الخليفة عمر بن عبد العزيز الامويّ لما نحا في الحكم والامارة منحى عمر بن الخطاب من حيث العدل وتتبع سيرة العمال وانتقاء اخيار الناس للولايات تألف قلوب الامة واستاس قياد الرعية بعد ان انفضوا من حول بني مروان ثم لم يلبث ان عاد المروانيون بعده الى سيرتهم الاولى حتى ضعف أمرهم وغلبوا على ملكهم لتفرق القلوب عنهم وانفضاض الناس من حولهم وما كان ذلك الا من نتائج اطلاق يد العمال وامعان هؤلاء في الجور. هذا بقطع النظر عن بعض الخلفاء الامويين الذين كانوا من حسن السيرة والقيام على العدل

بحيث لا يخرج عليهم خارج إباء لحكمهم أو تظلماً منهم وانما ذكرنا بني مروان مثالاً في الدول التي اصابها الضعف وقضى عليها سوء الادارة وجور العمال بالانحلال كما انا كتبنا هذا الفصل ليكون مقدمة لما عساه يرد ممنا من أخبار الدول في الغابر ، وعظة يتعظ بها الحاضر ، وانا والله اصبحنا في عصر احوج ما نحتاج اليه فيه معرفة العلل التي تمكنت من جسم الدول الاسلامية فأودت بحياتها الاستقلالية الى مايعلم ويشاهد ورحم الله امرأ اتعظ واعتبر ، وقوما أثر في نفوسهم توالى العبر ،

﴿ باب ﴾

أخلاقه وسيرته

كان أبو عبيدة كما قدمنا من كبار الصحابة وممن لازم النبي صلى الله عليه وسلم وتخلق باخلاقه فكان متواضعاً زاهداً تقياً عاقلاً رزيناً لين الجانب مخفوض الجناح عالماً بالشرع ذا ضربة في أمور الحرب نصوحاً في خدمة المسلمين وأحسن شاهد على جميل سيرته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه انه أمين هذه الأمة : ومثله ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن عمر ابن الخطاب انه قال يوما لجلسائه : تمنوا فتمنوا : فقال عمر بن الخطاب : لكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح : فقال له رجل ما ألوت [1] الاسلام : فقال ذاك الذي اردت : واخرج عن عبد الله بن عمر انه قال : ثلاثة من قريش اصبح الناس وجوهاً وأحسنها احلاماً [2] واثبتها جناناً [3] ان حدثوك لم يكذبوك وان حدثتهم لم يكذبوك . ابو بكر الصديق وعثمان بن عفان . وأبو عبيدة بن الجراح

---

(١) اي ماتقصته حقه (٢) عقولا (٣) قلباً

وها نحن اولاء ننقل اليك شيئاً من سيرته وأخلاقه ليكون فيها موعظة وذكرى لقوم يتفكرون فيها (في الزهد والتواضع) ما اخرجه الجزري في اسد الغابة وابن عساكر في تاريخه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقاه امراء الاجناد وعظماء أهل الارض فقال عمر: أين أخي؟ قالوا من؟ قال أبو عبيدة: قالوا يأتيك الآن: قال فجاء على ناقة مخطومة [1] بحبل فسلم عليه وسأله ثم قال للناس انصرفوا عنا فسار معه حتى أتى منزله فنزل عليه فلم ير في بيته الا سيفه وترسه فقال عمر: لو اتخذت متاعاً أو قال شيئاً: قال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين ان هذا سيبلغنا المقيل

وفي رواية رواها ابن عساكر عن ابن عمر انّ عمر حين قدم الشام قال لابي عبيدة اذهب بنا الى منزلك: قال: وما تصنع عندي ما تريد الاّ ان تعصر عينيك عليّ: قال فدخل منزله فلم ير شيئاً: قال أين متاعك لا أرى الاّ لبداً وصحفة وشنا [2] وأنت امير أعندك طعام: فقام أبو عبيدة الى جونه [3] فأخذ منه كسيرات فبكى عمر. فقال له أبو عبيدة قد قلت لك انك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين يكفيك ما بلغك المقيل: قال عمر: غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا ابا عبيدة

(ومن كريم أخلاقه وجميل تواضعه) ما رواه ابن عساكر عن قتادة قال: قال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام (يا أيها الناس اني امرؤ من قريش وما منكم من احد أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى الاّ وددت اني في مسلاخه) [4]

(١) قوله مخطومة الخطام زمام الناقة (٢) الشن هو القربة (٣) جونه اي سلته (٤) اي في جلده

هكذا كان أمراء الامة وأئمتها لا يرون لانفسهم فضلاً على فرد من أفراد المسلمين الآ بالتقوى كما علمهم نبيهم عليه الصلاة والسلام وفهموه من قواعد الاسلام وكانوا لا يزالون ينادون بهذا على قمم المنابر وملأ الناس تهذيباً لنفوس العامة وقياماً على نشر الفضيلة فلا يزيدهم هذا التواضع الآ شرفاً وعلواً وامتلاكاً لافئدة الناس واخذاً على شكائم أرباب العتو والجبروت حتى دانت لهم الامم واعتلوا بدولتهم على كل الدول ومنذ أصبح الجبروت والكبرياء من شعار الامراء واستعمال القوة والعنف ديدن اولي السلطة انقلب بدولهم الحال الى شر مآل مما سيأتي بيانه مجملاً أو مفصلاً في هذا الكتاب ان شاء الله

اذا كان أمير البلاد والقابض على زمام السلطة فيها ولي الولاية لا لدنيا يصيبها ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره بل لمطلق خدمة الامة ورجاء رضى الله كابي عبيدة بن الجراح الذي مات في ولايته ولم يملك من حطام الدنيا الا سيفه وترسه ولم يك في بيته ما يأكل الا كسيرات من الخبز فالى أية درجة من السعادة يصل أهل ولايته ؛ وكيف تكون دولة هذا حال رجالها وتلك أخلاق عمالها ؛ انها ولا مراء في الحق دولة لو طال أمدها وامتدت حيناً من الدهر أيامها لطوقت الكرة بقوتها ، ونشرت على الارض أعلام نصرتها ، ولم تدع ساجداً على وجه البسيط لغير خالق العباد ، وناطقاً في ارجاء الارض ينطق بغير الضاد ، ولكن النعم عند من لا يعرف قيمتها قليل دوامها والسعادة الخالصة من شوائب الزمان عزيز في الارض مقامها (وتلك الايام نداولها بين الناس)

(ومن اخلاقه في الادب ولين الشيمة) ما رواه ابن عساكر عن

موسى بن عقبة ان عمرو بن العاص لما كان في غزوة ذات السلاسل في مشارف الشام وخاف من جانبه الذي هو به بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده فندب رسول الله المهاجرين والانصار فانتدب فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب في سراة من المهاجرين وأمّر عليهم ابا عبيدة بن الجراح وامدّ بهم عمرو بن العاص فلما قدموا على عمرو قال : أنا اميركم وأنا ارسلت الى رسول الله استمده بكم : فقال المهاجرون : بل أنت امير اصحابك وأبو عبيدة امير المهاجرين : فقال عمرو وانما أنتم مدد أُمددت بكم : فلما رأى ذلك أبو عبيدة وكان رجلاً حسن الخلق لين الشيمة متبعاً لامر رسول الله (ص) وعهده : قال : تعلم يا عمرو ان آخر ما عهد اليّ رسول الله ان قال اذا قدمت على صاحبك فتطاوعا وانك ان عصيتني لاطيعنك : فسلم أبو عبيدة الامارة لعمرو بن العاص

لا جرم ان ابا عبيدة مع حسن أدبه ولين شيمته كان زاهداً بالدنيا لا يعبأ بالرياسة لشرفها ولا يرغب في الامارة لذاتها بل لما فيها من الثواب في خدمة الاسلام والمسلمين . واما عمرو بن العاص فقد كان حريصاً على الامارة راغباً بالدنيا والآخرة يحب الظهور ويميل الى اتيان الاعمال الكبار ليكون كبيراً عند الناس جامعاً بين الاجرين أجر الاولى وأجر الآخرة كما سترى ذلك مبسوطاً في سيرته ان شاء الله

ومن أدبه ايضاً ما اخرجه ابن عساكر عن ابي البختري قال : قال عمر لابي عبيدة (اى يوم السقيفة) هلم ابايعك فاني سمعت رسول الله يقول انك أمين هذه الأمة : فقال أبو عبيدة كيف اصلي بين يدي رجل امره رسول الله ان يؤمنا حين قبض : يعني ابا بكر الصديق .

وأخرج ايضاً عن جابر قال : كنت في الجيش الذين مع خالد بن الوليد أمد بهم أبو عبيدة بن الجراح وهو محاصر أهل دمشق : قال أبو عبيدة صلي بالناس فأنت أحق اتيتني تمدني : قال ما كنت لاصلي قدام رجل سمعت النبي يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح

(ومن أخباره في الوعظ وحسن التأديب) مارواه ابن عساكر عن ابي الحسن عمران انّ أبا عبيدة بن الجراح كان يسير في العسكر فيقول : ألاّ رب مبيض لثيابه ، مدنس لدينه ، ألاّ رب مكرام لنفسه ، وهو لها عدوّ مبين ، ادرأوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات فلو انّ أحدكم عمل من السيئات مابينه وبين السماء ثم عمل حسنةً لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن:

ربما تبادر الى ذهن القاري انّ ابا عبيدة يتغالى في الترغيب بقوله للمسلمين فلو انّ أحدكم الخ الحديث وليس الامر كذلك هو يريد بتلك السيئات سيئآت الجاهلية لانه انما يخاطب قوما حديثي عهد بالاسلام فكأنما هو يريد ان يعظم لهم شأن الاسلام وانه يمحو ما قبله من سيئات الجاهلية اذا عمل احدهم بما امر به من اتيان الحسنات والاّ فلو اراد غير ذلك لكان ترغيبه الى هذا الحد غلوّا واغراقاً يتبرأ عن مثله أبو عبيدة على مكانته من الدين وعلمه بالشريعة وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأيت في فصل (لاوثنية في الاسلام) كيف ندم أبو عبيدة على نقله حديثاً في الترغيب . وكم اودى سوء الفهم لمثل هذه الاحاديث والاخبار الى تشويش عظيم في افكار بعض الخلف حتى استدرجوا الناس بالمغالاة في الترغيب الى مدارج الاباحة وكل اضطراب دخل على عقائد المسلمين انما كان منشأوه سوء الفهم

تنبيه

قد أغفلنا باب الكتب هنا لانا لم نعثر لأبي عبيدة على كتب غير بعض كتب عهد لاهل الذمة قد مرّ مثلها في هذا الكتاب للفاتحين اللهم الاّ كتاباً كتبه الى عمر بن الخطاب هو ومعاذ بن جبل وقد مرت صورته في سيرة عمر وكتاباً آخر اورده ابن عساكر في حديث طويل وهو جواب كتاب أرسله اليه عمر بن الخطاب يستدعيه به للشخوص الى المدينة لما بلغه فتك الطاعون بالمسلمين بالشام وهذا نص الكتاب

اني في جند من المسلمين لن أرغب بنفسي عنهم وأني قد علمت حاجة امير المؤمنين التي عرضت لك وانك تستبقي من ليس بباق فاذا اتاك كتابي هذا فحللني من عزمتك وأذن لي في الجلوس

وقد اورد ابن عساكر هذا الكتاب في حديث طويل عن ابي موسى الاشعري كان بودنا ايراده في سيرة ابي عبيدة لما فيه من وجوب التوقي من الطاعون لو لم نر ان ابن الاثير وهن رواية هذا الحديث بسبب يقرب من الصحة

باب
(وفاته)

قلنا في باب الاحداث على عهد عمر انّ من اهمها طاعون عمواس وعمواس بين الرملة وبيت المقدس وهي على أربعة فراسخ من الرملة وكان ظهور الطاعون فيها سنة ١٨ للهجرة وانتشر في البلاد فاجتاح السكان وكان أبو عبيدة كما في رواية ابن عساكر في ستة وثلاثين الفا من المسلمين فلم يبق منهم الاّ ستة آلاف رجل ومات به كثير من الاعلام منهم أبو

عبيدة ومعاذ بن جبـل ويزيد بن ابي سفيان وقد اختلف في مكان وفاة ابي عبيدة فمن قائل انه في بيسان ومن قائل انه في عمواس ومن قائل انه في الاردنّ ففي اسـد الغابة عن عروة بن رويم انّ ابا عبيدة انطلق يريد الصلاة بيبت المقدس فادركه اجـله بفحل فتوفي بها : وكذا في رواية ابن عساكر عن ابن رُويم وزاد عليها انه اوصى قبل وفاته بقوله

اقرأوا امير المؤمنين السـلام واعلموه انه لم يبق من امانتي شيء الا وقد قمت به واديته اليه الاّ ابنة خارجة نكحت في يوم بقي من عدتهـا لم اكن قضيت فيها بحكومة . وقد كان بعث اليّ بمائة دينار فردوها اليه : فقالوا ان في قومك حاجة ومسكنة فقال : ردوها اليه وادفنوني من غربي نهر الاردنّ الى الارض المقدسـة ثم قال ادفنوني حيث قضيت فاني اتخوف ان يكون سنة (اي بعده)

وفي رواية له ايضا عن سعيد المقبري قال : لمّا طعن ابو عبيدة بن الجرّاح بالاردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال

وصيته

أني موصيكم بوصيـة ان قبلتموها لن تزالوا بخـير : اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا شهر رمضان وتصـدقوا وحجوا واعتمروا وتواصوا وانصحوا لامرائكم ولا تغشوهم ولا تُلهِكُم الدنيا فانّ امرأً لو عمر الف حول ما كان له بدٌّ من ان يصير الى مصرعي هذا الذي ترون. الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون. وأ كيسهم أطوعهم له وأعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله ، يامعاذ بن جبل صلّ بالناس : ومات فقام معاذ في الناس فقال

﴿ خطبة معاذ ﴾

﴿ بعد وفاة أبي عبيدة ﴾

يا أيها الناس توبوا الى الله من ذنوبكم توبة نصوحا فان عبداً لا يلقى الله تائبا من ذنبه الا كان حقا على الله ان يغفر له : من كان عليه من دين فليقضه فانّ العبد مرتهن بدينه : ومن اصبح منكم مهاجرا (مقاطعا) اخاه فليلقه فليصالحه ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث : والدين العظيم انكم أيها المسلمون لجعتم برجل ما أزعم اني رأيت عبدا أبرّ صدرا ولا ابعد من الغائلة ولا اشد حبا للعامة ولا انصح للعامة منه . فترحموا عليه رحمه الله واحضروا الصلاة عليه اهـ

ومن تبصر في وصية ابي عبيدة وخطبة معاذ رضى الله عنهما علم ان المسلمين انما سادوا يومئذ على الامم بمثل هذه المناصحة وبتلك الاخلاق البارة ولانهم كانوا دائبين على التواصي بالحق والتواصي بالصبر ينصح فقيرهم لغنيهم ويوصي بالحق اميرهم مأمورهم كما أمرهم الله في كتابه العزيز فكانوا له سامعين وبأمره مؤتمرين وحق لقوم جعلوا دأبهم التواصي بالحق والتناصح بالمعروف ان يسوّدهم الله على الامم كما سوّد اولئك القوم البررة النصحاء الذين خلدوا للمسلمين فخرا كاد يمحوه عن صفحات الزمان اقوام عطل من الفضيلة بعيدن عن فهم القرآن مستغرقون فى سبات الوساوس والاوهام سريعة خطاهم الى التدلي بطيئة عن الصعود لا يوافق نداء المنادي منهم قلوباً واعيةً ولا آذانا مصغية لهذا قد أخنى عليهم الزمان فهم يسبونه ظالماً وينسبون تقهقرهم اليه جهلا وما الزمان الا آية العبر ومستودع اسرار الامم ومظهر سنن الله فى الخلق فهو مرشد

العاقل ومردي الجاهل وان في هذا لبلاغا لقوم يعقلون

روى ابن عساكر ان ابا عبيدة شهد بدرا وهو ابن احدى واربعين سنة ومات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحناء والكتم وفي رواية انه مات ولم يعقب وفي رواية اخرى انه اعقب وانقرض عقبه رحمه الله ورضي عنه وجزاه وسائر الصحابة الكرام عن امتهم خير الجزاء

ولما حضرته الوفاة استخلف على عمله معاذ بن جبل فتوفي بعده في الطاعون واستخلف قبل وفاته عمرو بن العاص فارتفع بالناس الى الجبال فانكشف عنهم المرض

كلمة في القبور

لا نريد بهذا العنوان البحث عن تاريخ القبور كالنواويس والاهرام وما شاكلها من معالم الوثنية الأولى وانما نريد الوقوف بفكرة القارئ عند اختلاف المؤرخين في مكان قبر ابي عبيدة كاختلافهم في تعيين كثير من قبور جلة الصحابة الكرام الذين دوخوا هذا الملك العظيم وتحلوا بتلك الشيم الشماء وبلغوا من الفضل والتفضل والتقوى والصلاح غاية لم يبلغها احد من الاولين ولا الآخرين . وقد بسط المؤرخون اخبار اولئك الرجال العظام وعنوا بتدوين آثارهم العظيمة في فتوح الممالك والبلدان حتى لم يتركوا في النفوس حاجة للاستزادة ونعم ما خدموا به الأمة والدين

انَّ القارئ اذا وقف بفكره عند هذا الامر وقفة المتأمل لا يلبث ان يأخذه العجب لأول وهلة من ضياع قبور أولئك الرجال العظام واختفاء امكنتها عن نظر نقلة الاخبار ومدوني الآثار على جلالة قدر اصحابها وشهرتهم

التي طبقت الآفاق وملأت النفوس اعظاماً لقدرهم واكباراً لجلائل اعمالهم وثناء عليهم وتكريما لذكر أسمائهم وشكراً لالآئهم واعترافا بجميلهم واقرارا بفضيلة سبقهم بالايمان ونشرهم دعوة القرآن

لاجرم ان القارئ اول ما تحدثه به النفس عند التأمل في هذا الامر ان اولئك الرجال ينبغي ان تعلم قبورهم بالتعيين، وتشاد عليها القباب العاليات ذات الاساطين ، اذا لم يكن لشهرتهم بالصلاح والتقوى وصدق الايمان وصحبتهم للنبي عليه الصلاة والسلام فلما أتوه من كبار الاعمال ، التي تعجز عنها اعاظم الرجال ، فكيف غابت قبورهم عن نظر المؤرخين ، ودرست اجداثهم التي تضم أكابر الصحابة والتابعين ، حتى اختلف في تعيين أمكنتها أرباب السير ، وعفا من أكثرها الاثر ، الا ما علموه بعدُ بالحدس والتخمين ، وأظهروا أثره بالبناء عليه بعد ذلك الحين ، مع ان المشاهد عند المسلمين صرف العناية الى قبور الاموات بما بلغ الغاية بالتأنق في رفعها وتشييدها ورفع القباب عليها واتخاذ المساجد عندها لاسيما قبور الامراء الظالمين الذين لم يظهر لهم أثر يشكر في الاسلام ، والمتمشيخة والدجالين الذين كان أكثرهم يجهل أحكام الايمان ، ولا نسبة بينهم وبين اولئك الرجال العظام كأبي عبيدة بن الجراح واخوانه من كبار الصحابة الكرام الذين تلقوا الدين غضا طريا ، وبلغوا بالتقوى والفضيلة مكانا قصيا ،

والجواب عن هذا ان الصحابة والتابعين لم يكونوا في عصرهم باقل تقديراً لقدر الرجال وتعظيما لشأن من نبغ فيهم من مشاهير الابطال واخيار الامة الا أنهم كانوا يأنفون من تشييد قبور الاموات وتعظيم الرفات لتحققهم النهي الصريح عن ذلك من صاحب الشريعة الغراء الحنيفية السمحة

التي جاءت لاستئصال شأفة الوثنية ومحو آثار التعظيم للرفات، او العكوف على قبور الاموات، ويرون ان خير القبور الدوارس وان أشرف الذكر في أشرف الاعمال. لهذا اختفت عمن أتى بعد جيلهم ذلك قبور كبار الصحابة وجلة المجاهدين الا ما ندر ثم اختلف نقلة الاخبار في تعيين امكنتها باختلاف الرواة وتضارب ظنون الناقلين. ولو كان في صدر الاسلام أثر لتعظيم القبور والاحتفاظ على أماكن الاموات بتشييد القباب والمساجد عليها لما كان شيء من هذا الاختلاف ولما غابت عنا الى الآن قبور اولئك الصحابة الكرام كما لم تغب قبور الدجاجلة والمتمشيخين التي ابتدعها بعد العصور الاولى مبتدعة المسلمين وخالفوا فعل الصحابة والتابعين. حتى باتت اكثر هذه القباب تمثل هيا كل الاقدمين وتعيد سيرة الوثنية باقبح انواعها وأبعد منازعها عن الحق. وأقربها من الشرك. ولو اعتبر المسلمون بعدُ باختفاء قبور الصحابة الذين عنهم أخذوا هذا الدين وبهم نصر الله الاسلام لما اجترأوا على اقامة القباب على القبور وتعظيم الاموات تعظيما يأباه العقل والشرع وخالفوا في هذا كله الصحابة والتابعين الذين أدّوا الينا أمانة نبيهم فاضعناها وأسرار شريعته فعبثنا بها: واليك ما رواه في شأن القبور مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الاسدي قال: قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله (ص) أن لا أدع تمثالاً الاّ طمسته ولا قبراً مشرفاً الا سويته: وفي صحيحه ايضاً عن ثمامة بن شُفَيّ قال: كنا مع فَضالة بن عبيد بارض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي. ثم قال سمعت رسول الله (ص) يأمر

بتسويتها (١)

هكذا بلغونا الدين وادّوا الينا أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تأكيداً لعهد الامانة بدأوا بكل ما امرهم به الرسول بأنفسهم لنستنّ بسنتهم ونهتدي بهدي نبيهم ولكن قصرت عقولنا عن ادراك معنى تلك الجزئيات . وانحطت مداركنا عن مقام العلم بحكمة التشريع الالهيّ والامر النبويّ القاضي بعدم تشييد القبور اتقاء التدرج في مدارج الوثنية . فلم نحفل بتلك الحكمة وتحكّمنا بعقولنا القاصرة بالشرع فحكمنا بجواز تشييد القبور استحباباً لمثل هذه الجزئيات حتى أصبحت كليات وخرقاً في الدين وإفساداً لعقيدة التوحيد اذ ما زلنا نتدرج حتى جعلنا عليها المساجد وقصدنا رفاتها بالنذور والقربات ووقعنا من ثم فيما لاجله امرنا الشارع بطمس القبور كل هذا ونحن لانزال في غفلة عن حكمة الشرع نصادم الحق ويصادمنا حتى نهلك مع الهالكين

انتهى ما احببنا ايراده من سيرة ابي عبيدة رضي الله عنه وها نحن اولاء نشرع بسيرة سعد بن ابي وقاص الذي هو من مشاهير الدولة العمرية فنقول



(١) الاحاديث الواردة بالنهي عن تشييد القبور وتعظيمها ولعن من يتخذها مساجد ويقصدها بالنذور كثيرة قد استقصى الكلام عليها كثير من الائمة المصلحين كشيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وامثالهما فلتراجع فى مظانها من كتب القوم كالواسطة واغاثة اللهفان وغيرهما

سعد بن ابي وقّاص

باب

حاله في الجاهلية

نسبه وأصله

سعد بن ابي وقّاص واسم ابي وقاص مالك بن وهيب ويقال أهيب (كما في اسد الغابة) بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فِهر بن النّضْر بن كنانة القرشي الزهري يكنى ابا اسحاق وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس

مكانته عند قومه

(وصناعته)

كانت صناعة سعد بن ابي وقاص كما تقدم في صدر الجزء الاول بري النبل . واما مكانته عند قومه وسيرته فيهم فلم نقف على شيء منها إلاّ ان مكانته عند قومه تعلم بالضرورة من درجة غناه فانه كان قبل الهجرة غنياً موسراً ويستدل على غناه بالحديث الآتي الذي (روي في الصحاح والسنن) عن سعد أنه شكى في مكة مرضاً فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله قد بلغ مني الوجع ماترى وأنا ذو مال ولا يرثني إلا إبنة أفأوصي بثلثي مالي : قال لا : قال فالشطر : قال لا: ثم قال «الثلث والثلث كثير انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس وانك لن تنفق نفقة تبغي بها وجه الله الا اجرت عليها »

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

سعد بن ابي وقاص من السابقين الاولين الى الاسلام الذين وافقت دعوة التوحيد منهم قلوباً واعية فبادروا لقبولها مبادرة الظمآن للماء . والعليل للدواء . والنفس الحساسة من طبعها تململ من الشرك وتتألم من عبادة الاوثان وانما هي تترقب نوراً ينقشع عنه ظلام الوثنية ومعيناً يمزق عنها غشاء الحيرة لتبصر سبيل النجاة من متاعب الحياة الشركية وتتوصل لاطراح الآصار الجاهلية . وسعد رضي الله عنه لم يلبث ان طرق سمعه داعي السلامة والسلام حتى كان رابع أربعة في الاسلام

روى ابن عساكر في تاريخه وابن الاثير في اسد الغابة عن عائشة ابنة سعد قالت سمعت ابي يقول : رأيت في المنام قبل ان اسلم بثلاث كأني في ظلمة لا ابصر شيئاً اذ أضاء لي قمر فاتبعته فكأني انظر الى من سبقني الى ذلك القمر فانظر الى زيد بن حارثة والى عليّ بن ابي طالب والى ابي بكر وكأني أسألهم متى انتهيتم الى هاهنا قالوا الساعة: وبلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفياً فلقيته في شعب اجياد وقد صلى العصر فأسلمت فما تقدمني احد الأ هم : وروى ابن عساكر ان سعداً اسلم وهو ابن سبع عشرة سنة

ليس العجب من مبادرة سعد الى الاسلام بعد ان استبان له طريق الرشد فدفعه صفاء وجدانه الى التملص من حبائل الوثنية وانما العجب من هذا الدين الذي مادخل قلباً الا تمكن منه تمكن الروح من الجسم.

ورسخ فيه رسوخ الاطواد فاستحال أن تدركه المواصف او تسطو عليه الاغراض شأنه مع المسلمين الاولين ومن بعدهم الى هذا اليوم . وان ما نال الصحابة من الاذى وما عانوا من انواع الشدائد في سبيل تمسكهم بعروة الاسلام الوثقى والتفافهم على صاحب الشريعة الغرا لما تنوء به الجبال ومع هذا فلم يدفعهم عن شأنهم دافع . ولم يمنعهم عن المضي في سبيل الهدى والرشاد مانع . ومن هذا القبيل ما روى عن سعد بن ابي وقاص قال : نزلت هذه الآية فيّ (وان جاهداك على ان تُشركَ بي ماليس لك به علم فلا تُطِعْهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) قال كنت رجلاً برًّا بأمي فلما اسلمتُ قالت : ياسعد ما هذا الدين الذي احدثت لتدعنَّ دينك أو لا آكل ولا اشرب حتى أموت فتعيّر بي : فقال لاتفعلي ياأمت فاني لا أدع ديني : قال فمكثت يوماً وليلة لاتأكل فأصبحت وقد جهدت فقلت : والله لو كانت لك الف نفس فخرجت نفساً نفساً ماتركت ديني هذا لشيء : فلما رأت ذلك اكلت وشربت فانزل الله هذه الآية : اخرجه ابن الاثير في اسد الغابة وابن عساكر في تاريخه عن أبي عثمان النهدي : وفي اسد الغابة عن ابن اسحاق : قال كان اصحاب رسول الله (ص) اذا صلوا ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من اصحاب رسول الله (ص) في شعب من شعاب مكة اذ ظهر عليهم نفر من المشركين فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتتلوا فضرب سعد رجلا من المشركين بلحي جمل فشجه فكان اوّل دم اهريق في الاسلام : والصحابة الاولين من مثل هذا أخبار كثيرة تدل على صبرهم على

المكاره وتحملهم ضروب الاهانة من المشركين استمساكاً بحبل الاسلام ووفاءً بعهد الايمان وايقاناً بصدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام

صحبته

كان سعد بن أبي وقاص من خيرة اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة صاحب النبي صحبة مخلص في ايمانه وجاهد بين يديه جهاداً يشهد له بعظيم حبه له وتفانيه بين يديه اذ شهد معه المشاهد كلها وكان معه يوم فتح مكة احدى رايات المهاجرين الثلاث وكان ممن ثبت معه يوم احد وقاتل دونه قتال الابطال . وروي عن الزهري انه قال : رمى سعد يوم احد الف سهم : وجمع له رسول الله يومئذ أباه وأمه اذ قال له « ارم فداك أبي وأمي ارم ايها الغلام الحزوّر »[1] رواه في اسد الغابة عن علي بن ابي طالب (رض)

وعابه يوما بنو أسد في الكوفة فقال رادًّا عليهم : اني لاول العرب رمي بسهم في سبيل الله والله ان كنّا لنغزو مع رسول الله (ص) مالنا طعام الا السمر وورق الحبلة حتى ان كان احدنا ليضع كما تضع العنز (وفي رواية الشاة) ما بنا خالط ثم أصبحت بنو أسد تعزرني[2] على الدين لقد خسرت اذا وضلّ عملي : رواه ابن عساكر وابن الاثير عن قيس بن ابي حازم : ومن اجل ما يؤثر عنه في صحبته ما رواه ابن عساكر عن عبدالله بن

---

(١) الغلام الحزوّر أي القويّ (٢) قوله السمر وورق الحبلة كلاهما شجر وقيل ان الاول هو شجر الطلح والثاني نبات يشبه اللوبياء . وقوله كما تضع الشاة أي كما ترعى يريد أنهم بلغ بهم الصبر مع رسول الله على قلة الطعام أن كانوا يرعون ذلك النبات كما ترعى الشاة : وقوله ما بنا خلط الخلط والخلط بسكون اللام وكسرها التملق وقوله تعزرني من العزر وهو اللوم او التوقيف على باب الدين واحكامه كما في القاموس

عامر بن ربيعة انّ عائشة قالت: سهر رسول الله مَقْدَمَهُ المدينة ليلةً فقال « ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة » فبينما نحن كذلك اذ سمعنا خشخشة سلاح فقال « من هـذا » فقالوا : سعد بن أبي وقاص فقال له رسول الله (ص) « ما جاء بك » فقال سعد وقع في نفسي خوف على رسول الله فجئت أحرسه : فدعا له رسول الله : قالت فنام رسول الله حتى سمعت غطيطه في نومه

وهذا يدل على منتهى الحرص من سعد رضي الله عنه على حياة نبيه وراحته صلى الله عليه وسلم وكأنه شعر في تلك الليلة بخطر على النبي (ص) كما شعر النبي بذلك أيضا فبادر ليحرسه بنفسه ويقيه أذى عدوّه شأن صحابته كلهم الذين كانوا يتنافسون في خدمته ويحرصون على الذب عنه والذود عن حوضه وتعزيز دعوته واعلاء كلمته جزاهم الله خير الجزاء

وقد كان من حب رسول الله لسعد ان دعا له ان يسدد رميته ويجيب دعوته فكان مجاب الدعوة حتى لقد كان كبار الصحابة كعمر بن الخطاب وابن مسعود يتحاشون دعوته وقد روى المحدثون كثيراً من الاخبار فيمن اصابته دعوة سعد رضي الله عنه

باب

حروبه وفتوحاته

قد كان سعد بن ابي وقاص من شجعان قريش وكماتهم لهذا كان لما استشار عمر فيمن يوليه حرب الفرس ان أشاروا عليه بسعد وقالوا عنه: انه الاسد عاديا : كما رأيت في خبر مسير سعد الى العراق في الجزء الثاني فانتهى عمر الى رأيهم وسلم لهذا البطل الكبير قيادة الجيوش الاسلامية في حرب

الفرس وأوصاه بما أوصاه فسار بالجيوش حتى انتهى الى شراف وهناك عشّر الناس وأمّر على أجنادهم وعبّاهم وفرق المسالح في الاطراف وسد الفروج المخيفة ولما أتم لكل شيء عدته ارتحل الى القادسية وهي المكان الذي اختاره لحرب الفرس وكان على حافة البرية مما يلي أرض العرب وقد مرّ تفصيل الخبر عن مسير سعد الى القادسية في سيرة عمر ونشير هنا الى ما كان بعد وصوله القادسية من اخباره مع الفرس فنقول

لما نزل سعد القادسية نفر أهل السواد (سواد العراق) الى كسرى يزدجرد يستغيثونه وأخبروه بنزول العرب القادسية وتفرق سراياهم للغارة وطلبوا منه النجدة وقالوا ان أبطأ علينا الغياث أعطيناهم بأيدينا

علم يزدجرد من وقائع العرب الاولى مع جيوشه التي دحرت في العراق أيام خالد بن الوليد والمثنّى بن حارثة ان العرب بعد الاسلام ليسوا العرب قبله وان القوم الذين كانوا على زعم الفرس من رعاة الابل أصبحوا من رعاة الامم وقادة الفتح فلا ينفع معهم الا الجد ولا يقاومون الا ببذل الجهد في اعداد العديد والعدة فاستدعى اليه رستم وكان قائد قواد الدولة وصاحب الرأي فيها وقال له اني أريد اني أوجهك في هذا الوجه فأنت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله

كان رستم صاحب رأي ودربة وقد وقف على حال المسلمين وأوجس منهم خيفة على دولة الفرس فرأى ان مقامه مع كسرى لتدبير أمور الحرب وتسريح الجيوش ومناظرة القواد أولى من حضوره ساحات الحرب بنفسه ضنًّا بها عن مواقف الخطر . فرغب الى يزدجرد استبقاءه في عاصمة الدولة ليمد القواد بالرأي وكان مما قاله له يومئذ: ان العرب لا تزال

تهاب العجم مالم تضربهم بي ولعلّ الدولة ان تثبت بي اذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ، والرأي في الحرب أنفع من بعض الظفر، والاناة خير من العجلة ، وقتل جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدوّنا :

فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال : قد اضطرني تضييع الرأي الى إعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به فأنشدك في نفسك وملكك دعني أقم بعسكري وأسرح الجالينوس فان تكن لنا فذلك وإلاّ بعثنا غيره حتى اذا لم نجد بداً صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حامون فإني لا أزال مرجوًّا في أهل فارس ما لم أُهزم : فأبى إلاّ ان يسير فخرج حتى ضرب عسكره بساباط : وجاءت الاخبار الى سعد بذلك فكتب الى عمر فكتب اليه ان يستعين بالله ولا يجزع وان يرسل الى يزدجرد اولاً يدعوه الى الاسلام كما مرالخبر عن هذا في سيرة عمر رضي الله عنه: فأرسل سعد نفراً من أهل الرأي منهم النعمان بن مقرّن وبُسر بن أبي رُهْم وحَملة بن حويّة وحنظلة بن الربيع وفرات بن حيان وعديّ بن سهيل وعطارد بن حاجب والمُغيرَة بن زرارة بن النباش الاسدي والاشعث بن قيس والحرث ابن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معديكرب والمغيرة بن شعبة والمثنّى ابن حارثة دعاةً . فخرجوا من العسكر فقدموا على يزدجرد وطووا رستم واستأذنوا على يزدجرد فحبسوا ريثما أحضر يزدجرد وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع واجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتهم خيول كلها صهال وعليهم البرود وبأيديهم السياط فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال له سلهم ما جاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل اننا

تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فقال النعمان بن مقرن لاصحابه ان شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته فقالوا بل تكلم فقال :

انّ الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يأمرنا بالخير و ينهانا عن الشر و وعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدعُ قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة . ثم أمر ان نبتدئ الى من خالفه من العرب . فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ماجاء به على الذي كنّا عليه من العداوة والضيق. ثم أمرنا ان نبتدئ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف . فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسّن الحسن . وقبّح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرٌّ منه . الجزية . فان أبيتم فالمناجزة (الحرب) فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وقنا على ان تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم و بلادكم . وان بذلتم الجزى قبلنا ومنعناكم وإلاّ قاتلناكم :

ومن نظر في كلام النعمان هذا نظر منصف لايتعصب لفكر ولا دين يرى انّ أصول الدعوة الى الاسلام على هذا الوجه خير وسيلة لهداية الامم بلا إجبار ولا إكراه إلا مايصاحب الدعوة من القوة التي يراد بها حمايتها و إظهار شأن أهلها وقوتهم ومجدهم لمن لايرى قوة دين وصحته من البشر إلا بقوة أهله . والانسان أكثر مايخضع للحس دون الوجدان إلاّ من اطرح رداء التقليد، وأطلق عقله من قيود الاوهام، فوضع كل مايرد عليه موضع المحاكة والنقد ، وهؤلاء عددهم قليل ، في كل أمة وجيل

لم يقنع يزدجرد بما سمع من كلام النعمان فأجابه بجواب فظ يظهر

فيه امتهانه للعرب وعجبه من ظهورهم بذلك المظهر العظيم بعد ان كانوا من افقر الشعوب وادناهم واجهلهم : فأجابه المغيرة بن زرارة بان ما وصف به العرب من الجهل وسوء الحال هو حق الا انه قد كان ذلك قبل الاسلام واما بعده فالحال صار غير الحال . ثم دعاه الى ما دعاه اليه النعمان من قبول الاسلام . او يدفع الجزية عن يد وهو صاغر . او السيف فغضب يزدجرد من ذلك واستدعى بوقر من تراب فقال احملوه على اشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن وقال ارجعوا الى صاحبكم واعلموه اني مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ثم اورده بلادكم حتى اشغلكم بانفسكم بأشد مما نالكم من سابور : فتقدّم عاصم بن عمرو وقال انا سيد هؤلاء وحمل التراب على عاتقه وخرج الى سعد وقال ابشر فوالله لقد اعطانا الله أقاليد ملكهم

قال يزدجرد لرستم بعد ان فارقه الوفد ما كنت ارى انّ في العرب مثل هؤلاء . ما أنتم باحسن جوابًا منهم ولقد صدقني القوم لقد وعدوا أمرًا ليدركُنّهُ او ليموتنّ عليه . على اني وجدت افضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه : فقال رستم أيها الملك انه اعقلهم وتطير من ذلك

والعجيب في هذا الخبر ان يعتقد يزدجرد ان القوم وعدوا امرًا هم مدركوه ثم يعاملهم بمثل تلك المعاملة التي يريد بها تأكيد امتهانه لهم واحتقار امرهم وهذا بلا ريب من الخرق في الرأي والتناهي في الكبرياء الباطلة وسوء التدبير مع قوم سيكونون عما قريب سادة ملكه وهو يتوقع منهم ذلك ويحدث قومه به : ولا جرم ان اكثر ما مهد للمسلمين يومئذ طريق الفتح والغلبة على الامم هو استصغار شأنهم من ملوك الارض

وقادة الشعوب بسبب ما كانت عليه تلك الامة البدوية قبل الاسلام من الضعف وسوء الحال وتفرق الكلمة على انه كان في مظاهرهم واخلاقهم بعد الاسلام ما يكفي لاعتبار اعدائهم بتغير أحوالهم وينذر بعلو شأنهم على من سواهم ولله في هذا شأن هو بالغه

أخذ سعد بعد ذلك في بث السرايا للغارات على الاطراف ومناوشة مسالح الفرس وسار رستم من ساباط وبعث على مقدمته الجالينوس في اربعين ألفاً وخرج هو في ستين ألفاً وجعل على ميمنته الهرمزان وعلى ميسرته مهران وكتب الى أخيه البنذوان في مرمة الحصون واعداد العدة ثم سار فنزل بكوثي وأُتي له هناك برجل من المسلمين فقال له ما جاء بكم وماذا تطلبون : فقال جئنا نطلب موعود الله بمثل أرضكم وأبنائكم ان أبيتم ان تسلموا : قال رستم فان قتلتم قبل ذلك : قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقي منا أنجزه الله ما وعده فنحن على يقين : فقال رستم قد وضعنا أذن في أيديكم : فقال أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فانك لست تحاول الانس انما تحاول القدر : فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فعاث جيشه في النواحي وغصب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور فضج أهل برس الى رستم : فقال يا معشر فارس والله لقد صدق العربي والله ما أسلمنا الا أعمالنا . والله ان العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم . ان الله كان ينصركم على العدوّ ويمكّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والاحسان . فاذا تغيرتم فلا أرى الله الاّ مغيراً ما بكم وما أنا بآمن من ان ينزع الله سلطانه منكم : ثم أتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه

وانت ترى من هذه الحكاية الى أية درجة بلغ فساد النظام وفشو مرض الظلم والفوضى في أمة الفرس يومئذ ولا تثريب على عرب العراق اذا أعطوا بأيديهم الى المسلمين الذين رأوا منهم من حسن الاخلاق والمحافظة على الحقوق والقيام على العدل ما لم يُرَ من فاتح قبلهم قط

أقام رستم بالعراق دون القادسية نحو أربعة أشهر ولا يكون بينه وبين المسلمين حرب الاّ بعض المناوشات التي كانت تقع بين بعض جنوده وسرايا المسلمين ثم عزم بعد هذه المطاولة على قصد سعد وهو بالقادسية فسار وقدم امامه الجالينوس وكان يطاول المسلمين رجاء ان يضجروا بمكانهم فينصرفوا الاّ ان الملك استعجله وانهضه : وكان عمر (رض) كتب الى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضاً فأعد للمطاولة عدتها فلما وصل رستم القادسية وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل الناس فما زالوا يتلاحقون حتى أعتموا من كثرتهم والمسلمون ممسكون عنهم وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلاً منها فيل سابور الابيض

دعوة المسلمين الى الآخاء والمساواة وما نشأ عنها

لما اصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار من العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ثم صعد حتى انتهى الى القنطرة فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ولما هاله ما رأى من جمعهم مع ما خامر فؤاده من قبل من الخوف منهم أرسل الى زهرة بن الحوية وهو من سادات بني تميم فوافقه فأراده على ان يصالحه ويجعل له جعلا على ان ينصرفوا عنه من غير ان يصرح له بذلك بل يقول له كنتم جيراننا

وكنا نحسن اليكم ونحفظكم : ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة: ليس أمرنا كامر اولئك . انا لم نأتكم لطلب الدنيا انما طلبتنا وهمنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت الى ان بعث الله فينا رسولا فدعانا الى ربه فأجبناه : فقال لرسوله اني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فانا منتقم بهم منهم واجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه احد الاّ ذل . ولا يعتصم به أحد الاّ عز : فقال رستم : ما هو ؟ قال : امّا عموده الذي لا يصلح الاّ به فشهادة ان لا إله الا الله وانّ محمداً رسول الله: قال وأيّ شيء أيضاً قال واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله والناس بنو آدم وحواء اخوة لاب وام : قال ما أحسن هذا : ثم قال رستم أرأيت ان أجبت الى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون ؟ قال أي والله : قال صدقتني أما ان أهل فارس منذ ولي ازدشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم : فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع ان نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا:

من تأمل في هذه المحاورة علم انّ دعوة المسلمين لما كانت مبنية على الاخاء والمساواة واعتاق الطبقات الدنيا من رق العبودية لا سيا في الامم القديمة التي كانت دولها عريقة في الاستبداد واشراف مملكتها مستعبدين للشعب كان أصعب شيء على الامراء والملوك قبول هذه الدعوة لما يتوقعونه بعدها من وجوب كف يد القهر والقوة التي هم باسطوها على الناس لهذا كانوا يفضلون الحرب مع المسلمين على قبول دعوة الاسلام

ويزجون بالعامة في غمار الحروب لا دفاعاً عن الدولة بل منعاً عن الخير واستئثاراً بالسلطة وتشبثاً باسم السيادة المطلقة على الشعب بدليل ماسمعت من هذه المحاورة وما نتلوه عليك من تتمة ما كان من الخبر عن رستم فانه بعد ان سمع ماسمع من زهرة أحب ان يسمع أشراف أمته وقواده من المسلمين مثل ماسمع لعلهم ينزعون الى اطلاق حرية الشعب والتسامح بحقوق الطبقة الدنيا من الناس ليكونوا جميعاً اخوة في الدين سواء امام العقل والعدل : فدعا رجال فارس وذاكرهم في هذا فأنفوا وهو يتوقع منهم ذلك لهذا أرسل الى سعد أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا فدعا سعد جماعة ليرسلهم اليهم فقال له ربعي بن عامر متى نأتهم جميعاً يروا انا احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل : فأرسله وحده فسار اليهم في أبسط زي من اللباس والعدة واقتحم بفرسه بساط رستم ونمارقه ثم دنا منه وجلس على الارض ولم يشأ ان يجلس على البسط والنمارق فسئل ما جاء بكم ؟ فدعاهم الى الدين أو الجزية أو الحرب وبعد كلام طويل بينه وبين رستم استمهله لينظر وقومه في هذا الامر فأمهله ثلاثاً فقال له : وهل أنت سيد قومك؟ قال لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلاهم فخلا رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم كلاماً أعز وأوضح من كلام هذا الرجل ؟ ترغيباً لهم في اجابة دعوة الاسلام : فقالوا معاذ الله ان نميل الى دين هذا الكلب أما ترى الى ثيابه ؛ فقال ويحكم لا تنظروا الى الثياب ولكن انظروا الى الرأي والكلام والسيرة ان العرب تستخف باللباس وتصون الاحساب ليسوا مثلكم

ولعل رستم استمال أمراءه بعد ذهاب ربعي بن عامر أو أراد تردد

رسل المسلمين عليه رجاء اقتناع قومه منهم فلما كان من الغد أرسل الى سعد بن أبي وقاص أن ابعث الينا ذلك الرجل : فبعث اليهم حُذَيْفَةَ بن محصن فأقبل في نحو زي سابقه ووقف على رستم راكبا قال : انزل: فأبى فقال له ماجاء بك ولماذا لم يجئ الاول ؟ : قال : انّ أميرنا يحب ان يعدل بيننا في الشدة والرخاء : ثم سأله رستم عما جاء بهم فأجابه مثـل الاول فصرفه ثم بعث من الغد أن ابعثوا الينا رجلا : فبعث المغيرة بن شعبة داهية القوم في عصره فأقبل اليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة (مرمى سهم) لا يوصل الى صاحبهم حتى يمشي عليها فأقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على سريره فوثبوا عليه ومعكوه وأنزلوه فقال : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوما أسفه منكم انّا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً فظننت أنكم تواسون قومكم « أي تساونهم بأنفسكم والخطاب كما لا يخفى للامراء » كما نتواسى فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، فان هذا الامر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد ، واني لم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت انكم مغلوبون وان ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول :

قال المغيرة ماقال على ملأ الناس بين جندي وأمير وهو يسمع بصوته الجهوري كل الناس فسرى كلامه في الرؤوس تسرى الشرارة الكهربائية في الاسلاك وانتفض لها القوم كما ينتفض العصفور بلله القطر

ماذا كان بعد هذه الهزة الكهربائية. والدعوة الاسلامية ؟ كان انّ السفلة هبوا هبوب المستيقظين من سبات عميق فنادوا: صدق والله العربي

فيما قال : وامّا الدهاقين فكأنه صب عليهم صوت من العذاب وقالوا ، والله لقد رمى (يعنون المغيرة) بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله اوّلينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة : ولم يكن بعد هذا من الدهاقين أي أشراف البلاد وسادة الامة الذين يعتبرون بقية الشعب الذين هم دونهم عبيداً لهم كما رأيت من قول اولئك الدهاقين الاّ ان أصروا على الحرب ورفض ما دعاهم اليه المسلمون فافضى ذلك الى زوال دولتهم وذهاب ملكهم وانما حال بينهم وبين الاسلام واستبقاء ملكهم في أيدي ملوكهم حب الشهوات والحرص على السيادة المطلقة التي أرادهم على تركها المسلمون وعيّرهم بها المغيرة وسابقوه . وكم أزال حب السلطة الاستبدادية من الدول ودمر من الممالك وليس اشأم على البشر وأشد خطراً على الدول من حكومات تأصل في رجالها حب الاستبداد وبسط يد القهر على طبقات المحكومين، واستفحل فيها شأن الاشراف فكانوا أربابا والرعية مربوبين ، تساق بايديهم الى حيث تلاقي الحتوف وتعاني أنواع الشقاء

تأصلت جرثومة الاستعباد ونمت ملكة الاستبداد في نفوس أشراف الفرس وغيرهم من الامم القديمة فجاء الاسلام يدعوا الى الحرية وان البشر كلهم سواء ، أبوهم آدم والام حواء ، وانما أمر الشعوب في الامم القديمة الى اشرافهم كما رأيت فهم لامرائهم تبع ولذوي السيطرة عليهم مقلدين قد سدت دونهم المنافذ بسور من سطوة اولئك الجبارين ، فان تصل اليهم دعوة الاسلام الى المساواة في الحقوق والاخاء في الدين ، وعدم التفاضل الاّ بالعلم، الاّ بارهاب قادتهم، وقهر سادتهم.فهل يؤخذ على الاسلام وهذا شأنه في اسعاد البشر ان جعل أساس الدعوة الموعظة وحياطتها

القوة ، لا والله ان في هذا لمنتهى الحكمة بالاضافة الى اخلاق تلك الامم وحياتهم التي هي ذل محض ولّده طول الصبر على الضيم والرضوخ لسيطرة الامراء الجائرة وسلطانهم القاهر حتى أصبح ملكة من ملكات النفوس تظهر حينا وتختفي آخر واليك الدليل

دعا المسلمون رجال الفرس الى ما دعوهم اليه فأبوا واستكبروا ومنشأ الاباء كما علمت هو الحرص على السيطرة الاستبدادية والخوف من محو آية التفاضل او النهوض بالسفلة الى مقام الحرية الذي يلحقهم بالاشراف ويقضي على سيطرة هؤلاء بالضعف والزوال فزجوا بالعامة في غمار الحرب والحقوا بدولتهم الهلاك : لهذا اذا نظرنا الى الدعوة الاسلامية يومئذ نجد انه قد نشأ عنها امران عظيمان — أمر ظهر أثره في الحال ، وأمر ظهر أثره في الاستقبال ،

فأما الامر الذي ظهر أثره في الحال فهو رفض زعماء الفرس ودهاقينهم للاسلام ورضاهم بحرب المسلمين دون قبول دينهم خوفا من انتشار تعاليمه المؤذنة بغل ايدي الاشراف حتى كان من ذلك توقف انتشار الاسلام بالدعوة الا بعد حمايتها بالقوّة فتسلط العرب على مملكة الفرس ومحوا آثار الوثنية من البلاد :

واما الامر الذي ظهر اثره فى الاستقبال فهو انّ الرضوخ لسيطرة الاشراف لما صار ملكة فى نفوس الاعاجم كانوا لها اطوع ، واليها اميل ، ولما بسطت عليهم دولة العرب جناح العدل ورفعت فوق ربوعهم لواء الاسلام اغتبطوا حينا بسلطان المسلمين ثم لما امتد ملك العرب فى الشرق والغرب وتفرقت عصبيتهم فى انحاء الممالك وقلت الحامية منهم بين ظهراني الاعاجم وافضوا

الى هؤلاء بأمور الملك وشاركوهم في شؤون الدولة بحكم الوحدة الاسلامية والجامعة الملية ، نزع الأعاجم الى سيرتهم الأولى ونبض فيهم عرق القوّة فتحزبوا أحزاباً تناوئ الدولة العربيـة وتحاول هـدم أركان حكومتهم الديموقراطية واستبدالها بحكومة الاشراف الارسطوقراطية ولم يروا اعون لهم على هـذه البغية إلا الدعوة لآل البيت النبوي الشريف فبثوا منهـم الدعاة في الآفاق الاسلامية يدعون لآل البيت في السر تارة والعلانيـة أخرى حتى تمـكنوا من كبد الدولة المروانية وأوغروا عليها صدور الامـة وشوشوا على ملوكها تدبير أمور الرعية فكان ما كان من تتبع هؤلاء لاهل البيت بالقتل والتشريد حتى استفحل الخطب وأحفظوا عليهم قلوب المسلمين فتألبوا على قلب دولتهم مراراً عدة انتهت بظهور الدولة العباسية وتسليمها مقاليد الامور لانصارها من الاعاجم الذين لم يلبثوا الا جيلا أو بعض جيل حتى توثبوا على الخلافة وتشاطر زعماؤهـم ملك العباسيين العريض فأعادوا سيرة الاشراف الاولى لاقبح ما كانت عليـه من قبل في سوء الاحدوثة والايغال في الظلم وبسط يد القهر والاستبداد على الناس وسنلم بشيء من هذا البحث فيما يأتي من هذا الـكتاب ان شاء الله

وقائع القادسية

دعا رستم قومه الى مسالمة المسلمين بعـد كلام طويل جرى بينـه وبين المغيرة فأبوا عليـه وأراد سعد أن يباشر الحرب انذاراً للقوم آخر مرة فأرسل ثلاثة من ذوي الرأي الى رستم يدعونه وقومه الى الاسلام : فقالوا له ان أميرنا يدعوك الى ما هو خير لنا ولك ، والعافية أن تقبـل

مادعاك اليه ونرجع الى أرضنا وترجع الى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عونا لكم على أحد ان أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يدك وليس بيننا و بين ان تغتبط بهذا الامر إلاّ ان تدخل فيه

هذه كانت آخر دعواتهم له ان يقبل الاسلام ويحتفظ بدولته ومُلكه ومُلكه ويبقى في أرضه ويرجعون الى أرضهم وسلطان الفرس لهم وعليهم لا يضارون في ملكهم ولا يمس جانب سلطانهم ولهم من ذلك الحماية والدفع من المسلمين . ان هذا لغاية الانصاف ومنتهى السعادة لقوم انغمسوا في حمأة الوثنية واستناموا لزعماء الجور . لكن رستم رفض هذه الدعوة وغمط هذه النعمة مجاراةً لزعماء الامة وقادة الجيش ودهاقين البلاد فرد الرسل كما جاءوا أول مرة وأنذر المسلمين بالحرب وهو في باطن الامر لا يريدها ولم يتقدم لها إلا مكرهاً عليها عالما بمصير قومه بعدها فأمر قومه بعبور النهر بعد أن سأل سعدا : أتعبر الينا أم نعبر اليك ؟ فأجابه أن اعبر وأرسل سعد الى المسلمين أن يقفوا مواقفهم و يأخذوا للمصاف أهبتهم ففعلوا وعبر اليهم الفرس من العتيق وجعل رستم بينه و بين يزدجرد بريدا ينقل الخبر بالصوت أي وضع رجالا في مواقف يقرب بعضها من بعض بحيث اذا نادى الواحد يسمعه الآخر فيصل الخبر الى يزدجرد في أقرب وقت

كان بسعد يومئذ مرض عرق النَّسا وقروح في أليتيه لا يستطيع الركوب فبقي على سطح القصر وهو مكب على وجهه في صدره وسادة يشرف على الناس والصف في أصل حائطه فعابه بعض الناس بذلك وذكره في شعره وقال :

نقاتل حتى أنزل الله نصره ... وسعد بباب القادسية معصم

فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فبلغت أبياته سعداً فقال اللهم ان كان هذا كاذباً وقال الذي قال رياء وسمعة فاقطع عني لسانه ثم نزل الى الناس وأراهم ما به من القروح فعذروه وعلموا حاله ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة ودعا بناس من ذوي الرأي والنجدة منهم المغيرة بن شعبة وطليحة الأسدي وعمرو بن معديكرب وأمثالهم وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا وأمر سعد الناس بقراءة سورة الانفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها فلما فرغ القراء منها قال سعد: الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم فاني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فاذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ثم اذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم: فلما كبر سعد الثالثة خرج اهل النجدات فانشبوا القتال ودارت رحى الحرب واعتور الطعن والضرب وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلاً فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها. وأرسل سعد الى بني أسد ورئيسهم طليحة ان دافعوا عن بجيلة فخرج طليحة بن خويلد في كتائبها فباشروا الفيلة وقام الاشعث بن قيس في بني كندة فحرضهم على القتال فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب والجالينوس والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد واجتمعت حلبة فارس على أسد فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف اليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد وحملت الفيول على الميمنة

والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها فأرسل سعد الى عاصم بن عمرو التميمي ان يكفيه وقومه شر الفيلة فتقدم عاصم بجماعة من شجعان قومه ورماتهم فقطعوا وضن الفيلة فموت وفرت برجالها ونفس عن أسد فردوا جنود فارس عنهم الى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ثم رجع الفريقان وقد أبلى بنو أسد في ذلك اليوم ـ وهو يوم أرماث ـ بلاءً عظيماً

لما اصبح القوم في اليوم الثاني ـ وهو يوم اغواث ـ وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى الى النساء ليقمن عليهم واما القتلى فدفنوا هنالك وبينما هم يدفنون القتلى طلعت نواصي الخيل من الشام ومعهم القعقاع بن عمرو الذي قال عنه أبو بكر: لايهزم جيش فيهم مثل هذا : وقد كان عمر كتب الى ابي عبيدة بارسال أهل العراق الى العراق كما تقدم في سيرته فارسلهم وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بن أخي سعد ويعرف بالمرقال وكان القعقاع على مقدمته فتعجل فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم أغواث فعهد الى أصحابه وهم الف ان يتقطعوا أعشاراً كلٌّ ما بلغ عشرةً مدى البصر سرحوا عشرةً . ولما وصل سلم على الناس وبشرهم بالمدد وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع ثم خرج وهو ينادي يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر وطلب البراز فبرز اليه ذو الحاجب فتجاولا ساعة ثم قتله القعقاع ثم خرج البنذوان والفيرزان فانضم الى القعقاع الحارث بن ظبيان أحد بني تيم اللات فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البنذوان ثم ما زال يتبارز الاقران حتى انتصف النهار فتزاحف الفريقان واقتتلوا حتى انتصف الليل

ثم أصبحوا يوم عماس وهو اليوم الثالث وهم على مواقفهم فكان من حسن مكايد القعقاع أن بات تلك الليلة يسرب أصحابه الى المكان الذي فارقهم فيه وقال اذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فان أقبل هاشم (يعني ببقية الجيش الآتي من الشام) فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجداً وأصبحوا على مواقفهم فلما ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فحين رآهم كبّر وكبر المسلمون وتقدموا وتكتبت الكتائب واختلفوا الضرب والطعن فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى اليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فأخبر بما صنع القعقاع فعبّى أصحابه سبعين سبعين وكان فيهم قيس ابن هبيرة بن عبد يغوث المعروف بقيس بن مكشوح فانتدب مع هاشم حتى اذا خالط الناس كبر وكبر المسلمون ثم حمل على المشركين حتى خرق صفهم الى العتيق وكان الفرس باتوا يعملون توابيتهم و يعدون فيلتهم وأقبلت الرجالة تحميها ان تقطع وضنها فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالامس لان الخيل استأنست بالرجال المطيفين بها وكان يوم عماس شديداً على العرب والفرس وقاتل فيه القعقاع وعمرو بن معديكرب وهاشم وقيس بن مكشوح وعاصم بن عمرو وأضرابهم من أنجاد المسلمين قتالاً شديداً وانتدب عمرو والقعقاع للفيلة فشردوها وما زال القتال دائرة رحاه حتى أمسوا فلما أمسى الناس اشتد القتال وكانت ليلة (الهرير وكان الفرس لا يريدون غير الزحف فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير اذن سعد وكان أول من زاحفهم القعقاع وقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له ان لم يستأذني: ثم ان سعدا واعد المسلمين ثلاث تكبيرات ليزحفوا جميعهم فلما كبر الاولى تقدمت أسد ولله در أسد على حسن بلائها في هذه الحرب فقال :

اللهم اغفرها لهم وانصرهم : ثم حملت النخع ثم بجيلة ثم كندة ثم زحف الرؤساء ورحى الحرب تدور على القعقاع وتقدم حنظلة بن الربيع وأمراء الاعشار وطليحة وغالب وجمال وأهل النجدات ولما كبر سعد الثالثة تلاحق الناس بعضهم ببعض وخالطوا جنود الفرس واستقبلوا الليل استقبالاً بعد ماصلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم الى الصباح وأفرغ الله الصبر عليهم افراغاً وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط . فلما كان عند الصبح انتمى الناس (أي انتسبوا) فاستدل سعد بذلك على أنهم الاعلون وأن المسلمين هم الظافرون وكان أول شيء سمعه نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول:

نحن قتلنا معشراً وزائداً أربعة وخمسة وواحداً

نحسب فوق اللبد الاساودا حتى اذا ماتوا دعوت جاهداً

الله ربي واحترزت عامداً

وأصبح الناس من تلك الليلة التي تسمى ليلة الهرير وهم حسرى لم يغمضوا أجفانهم فسار القعقاع في الناس فقال ان الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا فان النصر مع الصبر فاجتمع اليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجد في أمر الله منكم ولا هؤلاء (يعنون الفرس) أجرأ على الموت منكم فحملوا فيما يليهم واقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا وثبتا حيث تهيا وانفرج القلب وركب عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم فهوت في العتيق وانتهى القعقاع ومن معه الى السرير وقد قام عنه

رستم وجاء هلال بن علقمة فضرب رستم فقتله ونادى اليّ اليّ قتلت رستم فأطاف به الناس وانهزم قلب الفرس فقام الجالينوس على الردم ونادى الفرس الى العبور وأمّا المقترنون بالسلاسل فتهافتوا كلهم في العتيق وأخذ ضرار بن الخطاب درفش كابيان وهو العلم الاكبر الذي كان للفرس (مر خبره في سيرة أبي بكر) فعوض منه ثلاثين ألفاً ونفل سعد سلب رستم لقاتله هلال

كانت وقائع القادسية هذه من أعظم الوقائع التي دونها التاريخ وقتل فيها من المسلمين نحو سبعة آلاف وخمسمائة وأما من قتل من الفرس فعدد كبير بالغ فيه المؤرخون وانتهت هذه الوقائع بكسر شرّة الفرس وفلّ حدهم وتشتت جندهم ودخول الوهن على نفوسهم كما كان ذلك مع الروم في وقعة اليرموك . والغريب في هذا ان عدة المسلمين كانت ضعيفة لا تشاكل عدة الفرس العريقين في المدنية الماهرين في الصناعات لاسيما في الادوات الحربية حتى لقد روى المؤرخون ان الفرس كانوا يشبهون سهام العرب بالمغازل فقد روى البلاذري عن أبي رجاء الفارسي عن أبيه عن جده قال: حضرت وقعة القادسية فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول (دوك دوك) يعني مغازل فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالت أمرنا :

وقد غنم المسلمون في القادسية غنائم كثيرة الله أعلم بمقدارها ولما جمعت الاسلاب والاموال جمع شيء لم يجمع قبله مثله وأمر سعد القعقاع وشُرَحبيل بن السمط باتباع الفارين وخرج زهرة بن الحوية التميمي في آثارهم في ثلاثمائة فارس ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وأمعنوا فيمن لحقوه قتلاً وأسراً ورؤي

شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلا أسرى من الفرس وهو دليل على ماأصاب القوم من الذعر والخوف وما داخلهم من الجبن بعد القادسية التي رأوا فيها من قتال المسلمين ماتشيب له الولدان ويخفق عند ذكره الجنان

رأى سعد سلب الجالينوس فاستكثره على زهرة بن الحوية وليس له أن يستكثر عليه مثله في مثل موقفه ذلك فكتب الى عمر في ذلك فآخذه عمر على استكثاره على زهرة سلب الجالينوس وكتب اليه: تعمد الى مثل زهرة وقد صلى (سبق) بمثل ماصلى به وقد بقي عليك من حربك مابقي تفسد قلبه ؟ أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة: ونعم ما فعل عمر رضي الله عنه فقد أنصف الرجل من جهة ونبه سعداً من جهة ثانية الى وجوب تألف كبار الناس في مواقف الحروب امتلاكا لقلوبهم وتقديرا لقدر خدمتهم

لما رأى جنود الفرس بعد وقعة القادسية مارأوا من ظفر المسلمين وهالهم أمر الاسلام استأمن قسم عظم منهم على أن يكونوا من جند المسلمين وكان مع رستم أربعة آلاف جندي يسمون جندشهانشاه(ولعلهم من الحرس الملكي) استأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوامن أحبوا ويفرض لهم في العطاء فأعطوا الذي سألوه وحالفوا زهرة بن حوية السعدي التميمي وأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في ألف ألف : نقل هذه الرواية البلاذري في فتوح البلدان وهي اذا صحت تدل على جواز استخدام الذمي في الجند الاسلامي اذا طلب ذلك ولا يعترض هنا ان الفرس من المجوس وهم غير أهل الذمة من الكتابيين فان عمر كان يعامل المجوس معاملة أهل الذمة من حيث الجزية وغيرها فقد روى البلاذري أيضاً عن جعفر

ابن محمد عن أبيه قال كان للمهاجرين مجلس في المسجد «المشاورة» فكان عمر يجلس معهم ويحدثهم عن ما ينتهي اليه من أمر الآفاق «ليستشيرهم في الامور» : فقال يوماً ما ادري كيف أصنع بالمجوس فوثب عبد الرحمن ابن عوف فقال : أشهد على رسول الله (ص) انه قال «سنوا بهم (أي بالمجوس) سنة أهل الكتاب»

ومن هذا الحديث نعلم ان المجوس فى المعاملة الشرعية كأهل الكتاب لهذا عاملهم عمر رضي الله عنه معاملة أهل الكتاب

﴿ فتح المدائن ﴾

عاصمة الاكاسرة

انّ وقعة القادسية كانت كما ذكرنا مقدمة لتوهين قوة الفرس وتمهيداً للوصول الى عاصمة الاكاسرة التي كانت أم البلاد القادسية ومعقل الاسرة الكسروية لهذا كان ما كان من سعد فى القادسية من طول التأني والتريث فى أمر الحرب وأخذ العدة ومطاولة العدوّ حتى أضجر رستم من طول المكث وجعله يهاجم جيش المسلمين مهاجمة اليائس من الظفر بعد ان رأى ما رأى من ثبات العرب ورزانتهم وحسن قيام رؤسائهم على أمور الحرب : ولما انتهى أمر القادسية الى ما انتهى اليه أقام سعد بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن وان يخلف النساء والعيال بالعتيق وان يجعل معهم جنداً كثيفاً وان يشركهم في كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم : ففعل ذلك وسار من القادسية لايام بقين من شوال سنة خمس عشرة وقدم امامه عبد الله بن المُعْتَم

وزهرة بن حوية وشرحبيل بن السمط فلقيهم في برس جمع من الفرس فهزمهم المسلمون ففروا الى بابل وفيها فالة القادسية ولما هزموا اقبل بسطام دهقان برس فصالح زهرة وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل فارسل زهرة الى سعد يعرفه الخبر فقدم عليه سعد ببرس وسيره في المقدمة واتبعه عبد الله وشرحبيل وهاشما المرقال بن أخيه واتبعه هو ببقية الجيش فنزلوا على الفيرزان ببابل فاقتتلوا فهزمهم المسلمون وكان فيهم عدة من القواد الكبار منهم النخيرخان والهرمزان ومهران فانطلق هؤلاء القواد كل الى جهة فأخذها ورحل سعد وعلى مقدمته زهرة فالتقوا بجمع من الفرس في كوثي فهزموهم ثم ارتحلوا الى بهرشير وهي المدائن الغربية فلما وصلها المسلمون ورأوا الايوان قال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض كسرى . هذا ما وعد الله ورسوله : وكبر وكبر الناس معه فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة وكان نزولهم عليها في ذي الحجة سنة خمس عشرة وانما كانوا يكبرون لتحقق وعد رسول الله لهم بملك كسرى : والذي أخذ بافئدة العرب فاستكانوا للدعوة واخلصوا للاسلام النية وتفانوا في سبيل نشر الدين ورفع رايته على صروح الممالك انما هو تحقق وعد النبي (ص) لهم بمصير ملك فارس والروم اليهم حتى ان هذا الامر كان من أعظم البواعث على اخلاص كثير من المنافقين وحسن اسلامهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانوا من اعوان الاسلام وقادة الفتح بعدُ : ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين نزل المسلمون على بهرشير وهي على شاطئ دجلة الغربي وحاصروها نحو شهرين وهم يرمون العدوّ بالمجانيق ويدبون اليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكل

عدة ونصبوا على المدينة عشرين منجنيقا حتى ضيقوا على أهلها الحصار وباتوا في ضنك شديد فأكلوا الكلاب والسنانير وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم وبالنهاية غادروا المدينة وقطعوا الى المدينة الثانية فاخذها سعد وانزل المسلمين منازلها وكان فتحها في صفر سنة ست عشرة

أقام سعد في بهرشير اياماً من صفر وهو يفكر في كيفية العبور الى المدينة الثانية التي فيها ايوان كسرى فأتاه علج فدله على مخاضة تخاض الى صلب الفرس فأبى وتردد عن ذلك لان النهر كان كثير المد يومئذ ودجلة تقذف بالزبد فجاءه آخر وحرضه على العبور وقال ان بقيت ثلاثة أيام فان يزدجرد يذهب بكل شيء في المدائن فهيجه ذلك على العبور فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ان عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه معه ويخلصون اليكم اذا شاؤا في سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شيء تخافون ان تؤتوا منه . وقد كفاكم أهل الايام وعطلوا ثغورهم . وقد رأيت من الرأي ان تجاهدوا العدو قبل ان تحصدكم الدنيا . ألا اني قد عزمت على قطع هذا النهر اليهم :

فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل : فندب الناس الى العبور وقال : من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من العبور ؟ فانتدب عاصم بن عمرو ذو البأس في ستمائة من أهل النجدات فاستعمل عليهم عاصما فقدمهم عاصم بستين فارسا على الخيل الذكور والاناث ليكون أساس لسباحة الخيل ثم اقتحموا دجلة فلما رآهم الفرس وما صنعوا أخرجوا للخيل التي تقدمت مثلها فاقتحموا عليهم دجلة

فالغوا عاصما وقد دنا من الفراض فقال عاصم : الرماح الرماح اشرعوها وتوخوا العيون : فالتقوا فاطعنوا وتوخى المسلمون عيونهم فولوا فلحقهم المسلمون وتلاحق الستمائة بالستين غير متعبين ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها . أذن للناس بالاقتحام وتلاحق الناس في دجلة حتى اذا بلغوا الضفة الثانية ورأى الفرس ذلك ولوا هاربين : وكان يزدجرد قدم عياله الى حلوان قبل ذلك وخلف جماعة على بيت المال من خواص أصحابه فخرجوا بما قدروا عليه وتركوا من المتاع والآنية والالطاف شيئا كثيراً مع ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم وذكر المؤرخون عما وجد في بيت المال مقدارا فيه من الغلو والمبالغة مايرفضه العقل وهو ثلاثة آلاف الف الف الف وقد نقل هذا العدد ابن الاثير عن الطبري والطبري أعقل من ان لا يحكّم العقل في ايراد مثل هذا العدد وانما هو من تحريف النساخ أو من حشو بعض أغبياء الناس اذ وجود ثلاثة آلاف ألف ألف أي ثلاثة آلاف مليون بلا تكرير ثلاثة مرات أمر يستبعده العقل فكيف به لو كرر وقد رأينا كثيراً من أمثال هذه الروايات الكاذبة في التاريخ وانما يظهر كذبها بقليل من التبصر والامعان ومعظمها ناشئ عن التحريف في النقل والمسخ في النسخ

لما دخل المسلمون المدينة لم يجدوا بها أحداً الا حامية القصر الابيض وهؤلاء استأمنوا في الحال ودخل سعد الايوان واتخذ فيه مصلى للمسلمين ولم يغير ما فيه من التماثيل وانه ليصلي بالناس والتماثيل قائمة فيه : وقرأ سعد يوم دخوله الايوان « كم تركوا من جنات وعيون وزرع » الآية

وجمع سعد من الغنائم مايفوق الحصر ومنها ذخائر كسرى وسلاحه

وناهيك بذخائر الاكاسرة . وقسم الفيء على الجند فأصاب الفارس اثنى عشر ألفاً وكان كلهم فارس ليس فيهم راجل وبعث بالاخماس الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده فلما رآها قال : انّ قوماً أدوا هذا لذوو أمانة : فقال له عليّ رضي الله عنه انك عففت فعفت الرعية

ولاجرم فانه مع اقبال هذه الدنيا العريضة على المسلمين يومئذ وامتلاء أيديهم بالغنائم وصيرورة كنوز فارس اليهم كانوا على جانب من عزة النفس والامانة والتعفف قل ما صدر عن جيش من جيوش الفاتحين وخذ لك مثلاً على ذلك ان رجلا من المسلمين أقبل يومئذ بحق (علبة) الى صاحب الاقباض فقال ومن معه : ما رأينا مثل هذا ما يعدله (يماثله) عندنا ولا مايقاربه : فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به: فقالوا من أنت ؟ فقال والله لا أخبركم فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه : فأتبعوه رجلا فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد : والله ان الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لاهل بدر لقلت انهم على فضل أهل بدر ، لقد تتبعت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء :

وقال جابر بن عبد الله : والذي لا إله إلاّ هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة . فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأماناتهم وزهدهم وهم طليحة وعمرو بن معديكرب وقيس بن المكشوح

الى هذا الحد بلغت العفة والامانة من المسلمين يومئذ وانما كان الباعث لهم على ذلك أمور منها جدة الدين والاخلاص لله في الجهاد ، ومنها القناعة بكل ما حصل واعتباره أنه نعمة عظمى بالنسبة لما كانوا عليه

قبل الاسلام من شظف العيش وضنك الحياة يضاف الى هذا سذاجتهم الفطرية ومعيشتهم البدوية حتى لقد روي ان بعضهم أخذوا الكافور فظنوه ملحاً وطبخوا به الطعام : وكان بعضهم يستبدل الذهب بزنته فضة وبالجملة فقد بلغ جيش المسلمين هذا من الامانة والاخلاص وسلامة القلوب وصدق القول والعمل منتهى المراتب حتى أثنى الناس على جيش القادسية خير الثناء كما رأيت وقال عمر عنهم : أولئك أعيان العرب :

لما استتم لسعد فتح المدائن واستقرّ به المقام أرسل في أثر المنهزمين زهرة بن الحوية الى النهروان وأتاه أهل النواحي واستأمنوه وصالحوه على الجزية ولم يدخل في صلحهم ما كان لآل كسرى اذ هذا صار فيئاً للمسلمين

ثم سيّر جيشاً عليه عبد الله بن المُعْتَم الى الجزيرة ففتح تكريت والموصل وقد تقدم الخبر عن ذلك في سيرة عمر والخلاف بين المؤرخين في فتح الموصل هل كان على يد عياض بن غنم لما أرسله عمر لفتح الجزيرة سنة ١٨ أم كان على يد عبدالله بن المعتم من قبل سعد بن أبي وقاص سنة ١٦ والارجح ان فتح الموصل كان سنة ١٦ من قبل سعد بن أبي وقاص وفتح عامة الجزيرة كان سنة ١٨ عن يد عياض بن غنم لان عياضاً تولى فتح الجزيرة بعد وفاة أبي عبيدة وكانت وفاة أبي عبيدة سنة ١٨ وقد مر الخبر عن ذلك في سيرة عمر في أخبار فتح الجزيرة فليراجع

وسيّر سعد جيشاً الى حلوان بقيادة هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو فكان لهم مع الفرس وقعة جلولاء الشهيرة التي تشبه وقعة القادسية ثم قصد القعقاع حلوان حيث يقيم كسرى وكان كسرى قد فرّ منها منذ وصل المنهزمون من وقعة جلولاء فنزلها القعقاع في جند من

الامناء والحمراء (أي متطوعة الاعاجم) ونازلها حتى افتتحها و بقي القعقاع فيها الى ان تحول سعد الى الكوفة فلحقه القعقاع واستخلف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا . ويظهر من هذا ان المسلمين لما توسعوا في الفتح اضطروا بحكم الضرورة الى مشاركة الاعاجم في الامور الحربية والادارية بدليل نزول القعقاع على حلوان بجند من الاعاجم ثم تسليمه ولايتها الى قباذ أيضا . على ان مشاركة الاعاجم في أمور الفتح وتدبير شؤون البلاد يومئذ من أحسن مارمت اليه سياسة المسلمين لان القوم يتأسون بمثل هذه المعاملة الجميلة فيكونون عونا للمسلمين في تدويخ البلاد وتدبير أمور السياسة ولعل هذه السياسة الحسنة التي كانت من عمر وقواده في مشاركة الاعاجم كانت من ممهدات الفتح وأسباب سرعة انتشار الاسلام ورفع أعلامه في أقاصي البلاد اذ تسامح الفاتح وملاينته لاهل البلاد وتخصيصهم بشيء من السلطة من أعظم الاسباب الممهدة سبيل الظفر للفاتحين

أتم سعد بن أبي وقاص (رض) ماعهد اليه من فتح المدائن وفل جيش الفرس في القادسية وهدم عرش الدولة القديمة ودوخ عاصمة ملكها العظيم فانحدرت من شاهق مجدها المتأثل فيما بعد الى هاوية الخراب حيث قامت مقامها في تلك الاصقاع بغداد دار الخلافة العباسية ومنبعث أشعة التمدن الاسلامي العظيم

واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

على ان ما ضمته بغداد تحت جناحي الخلافة الاسلامية من الممالك الشاسعة والامصار النائية لم تضمه المدائن في عهد الدولة الساسانية . والفضل في هذا لسعد وأضرابه من أقيال الصحابة السابقين ورجال خلافة الراشدين جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين

باب

تخطيط الكوفة

وامارته عليها

أقام سعد بالمدائن بعد الفتح فأضر بالعرب وخامتها وكان أوفد منهم بخبر الفتح وفداً الى عمر فرأى اصفرار وجوههم وتغير ألوانهم فسألهم عن السبب فأخبروه انه وخومة البلاد فكتب الى سعد أن ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا بريًّا بحريًّا ليس بيني و بينكم فيه بحر ولا جسر: فأرسلهما سعد نخرج سلمان حتى أتى الانبار فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة وسار حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة (وكل رملة وحصباء مختلطين فهو كوفة) فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها فصليا ودعوا ان تكون منزل ثبات ورجعا الى سعد بالخبر فكتب سعد الى القعقاع بن عمرو وعبد الله بن المعتم ان يستخلفا على جنديهما ويحضرا عنده فارتحل حتى نزل الكوفة في المحرم سنة (١٧ هـ) وكان بين نزول الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهر وقيل أكثر فلما نزلها كتب الى عمر ، فكتب اليه بالبناء على الوجه الذي تقدم في سيرة عمر (رض) وأقام سعد واليا على الكوفة وتوابعها نحو ثلاث سنين ونصف وكان حسن الامارة كثير التتبع لاحوال الرعية منصفا بين المسلمين شديدا على المعتدين : وكان عمر لا يفتأ يسأل عن سيرته كما هو دأبه مع جميع العمال فوفد عليه مرة عمرو بن معديكرب الزبيدي فسأله عنه فقال· متواضع في خبائه ، عربي في نمرته ، أسد في تاموره ، (عرينه) يعدل في القضية، ويقسم

بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويعطف علينا عطف الام البرة وينقل الينا حقنا نقل الذرة .

الا أن أهل الكوفة لما أخلدوا الى الراحة وأخذ يتولد فيهم الفساد ويظهر التحزب وجعلوا يأنفون من سيادة قريش لادلالهم بالفتح وطول معاناتهم للحرب مع الفرس وغيرهم سعى قوم منهم بسعد بن أبي وقاص وألبوا عليه وكان أكثرهم من بني أسد وكان ممن تحرك في أمره الجراح ابن سنان الاسدي . وكان مما عابوه عليه انه لايحسن الصلاة. فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس في نهوند فسأل عن سيرته في الكوفة فكلهم قال خيراً سوى من مالأ الجراح فانهم سكتوا ولم يقولوا سوأً ولا يسوغ لهم حتى انتهوا الى بني عبس فسألهم فقال أسامة بن قتادة : اللهم انه لايقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، ولا يغزو في السرية : فقال سعد : اللهم ان كان قالها رياءً وكذباً وسمعة فأعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن : فاصابته دعوة سعد .ثم دعا سعد على اولئك النفر فأصيبوا وأصيب الجراح اذ قطع بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي رضي الله عنه ليغتاله بساباط

وخرج محمد بسعد وبهم معه الى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه الخبر : فقال كيف تصلي ياسعد : قال اطيل الاوليين وأخفف الاخريين : فقال هكذا الظن بك يا أبا اسحق : ثم ان عمر دفعاً للفتنة في وقت يريد به تجهيز الجيوش لنهاوند حيث يعد الفرس العدة العظيمة لحرب المسلمين عزل سعد وولى مكانه خليفته على الكوفة وهو عبد الله بن عبد الله بن عتبان : وأراده عمر على الامارة مرة ثانية فأبى وقال كيف أتأمّر على قوم يزعمون

اني لا أحسن أصلي : ولما طعن عمر أوصي الخليفة بعده أن يؤمر سعداً فأعاده عثمان رضي الله عنه الى الكوفة ثم عزله لانه اقترض من عبد الله ابن مسعود من بيت المال قرضاً وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسرسعد فتلاحيا وتناجيا بالقبيح ورفع سعد يده ليدعو على ابن مسعود . فقال له : ويحك قل خيراً ولا تلعن : و بلغ عثمان الخبر فعزله عن الكوفة فاعتزل في منزله في العقيق قرب المدينة : وقدمنا ان عمر رضي الله عنه كان يصادر عماله فلما كان سعد أميراً من قبله على الكوفة شاطره ماله فقال له سعد لقد هممت قال عمر : بأن تدعو علي ؟ قال : نعم قال : اذاً لا تجدني بدعاء ربي شقيا

باب
نبذة من اخباره
واعتزاله الفتنة

(صدقه في الحديث) كان سعد رضي الله عنه صادق الحديث صادق الرواية لما فطر عليه من صدق اللهجة وقول الحق : روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه مسح على الخفين وان عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : اذا حدثك سعد عن رسول الله فلا تسأل عنه غيره : وفي رواية : فلا تبتغي وراء حديثه شيئاً .

وقد بلغ به الحرص على صدق الحديث ان كان يضن بالرواية خوف التحريف ونقل مالم يقل ففي رواية ابن عساكر عن السائب بن يزيد : قال خرجت مع سعد الى مكة فما سمعته يحدث حديثاً عن رسول الله (ص)

٢/٣/٢

حتى رجعنا الى المدينة : وروي عن عائشة بنت سعد قالت سئل سعد عن شيء فاستعجم فقيل له في ذلك فقال اني أكره ان أحدثكم حديثاً فتجعلوه مائة حديث :

ومن البديهي ان سعداً ما قال هذا القول إلاّ لانه يخاف كما كان يخاف كبار الصحابة ومنهم عمر وأبو عبيدة من كثرة الرواية وتحريف النقل ووضع الحديث ومن علم بما حدث من الوضع لاسيما في أيام الفتن العظمى التي ثار ثائرها بين المسلمين عذر هؤلاء الصحابة وأشباههم على تجنب رواية الحديث والنهي عنه إلا ما تعلق منه بالاحكام وحسب الامة ما أصابها من البلاء وتفريق الكلمة مما وضعه يومئذ الشيعة وأعداؤهم من الاحاديث التي يريد بها كل فريق تأييد دعواه وتعزيز جانبه ولو لم يكن من البلاء إلا مادخل في نفوس العامة ووقر في آذانهم من أخبار المهدي المنتظر لكفى ذلك وهناً على الأمة وهوناً لها لترك عامتها التذرع بالاسباب عند حلول كل حادث جلل اعتماداً على ظهور ذلك المنتظر وطالما تظاهر أناس بهذه الدعوى الباطلة وغشوا العامة بأكاذيبهم المفتراة ولم ينشأ عن دعواهم من دفع البلاء الذي يرجوه العامة إلا زيادة في البلاء وسفكاً للدماء وتفريقاً بين الامة وتشتيتاً للكلمة ومع هذا فليس ثمة من يعتبر بكذب تلك الاخبار المفتراة ويزدجر عن غي النفس واضلال العقل وغش الضمير : وماذا عسانا نقول عن واضعي أمثال تلك الاخبار . وما أصاب الامة من جرائها شاهد عدل يشهد بأنهم لم يريدوا بها للاسلام خيراً . ومن كان هذا شأنه فأحرى به ان لايحشر مع المؤمنين . ولنا كلام على أحاديث المهدي وما جرت من المصائب على الامة نرجئه لمحل آخر وكلام أعم منه يجول .

في الضمير ويحجم عنه اللسان أدباً مع أسلافنا الغابرين وتفادياً من تهجم الجاهلين

(ومن محاسن أقواله) مارواه ابن عساكر عن المدائني قال: قال سعد لابنه: اذا طلبت الغنا فاطلبه بالقناعة فانه من لم يكن له قناعة لم يغنه مال:

(ومن جميل خلق سعد) ما رواه ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال: كان بين سعد وخالد بن الوليد كلام فذهب رجل يقع في خالد عند سعد فقال: مه ان ما بيننا لم يبلغ ديننا:

وما أخلق بأهل الفضيلة وأرباب العقل والدين الختم على أفواه النمامين والاخذ على أيدى المغتابين كما صنع سعد رضي الله عنه اذ ليس أفسد للقلوب وأفصم لعرى التآلف وأدعى لبث روح البغضاء بين الافراد من الغيبة والنميمة ، وشر الناس الذين هم شر على المجتمعات النمامون المغتابون الساعون بالتفريق الدائبون على الوشاية. ومن أراد ان يعلم مصير الاقوام الذين يتفشى بينهم هذا الداء العضال والمرض القتال مرض الوشاية فليطلق نظر المتأمل على ماأصاب بعض الممالك الاسلامية ليرى من تباغض الافراد وتناكر القلوب وتداعي أركان العمران وهدم بيوت المجد وتقويض أسس السعادة القومية والآخاء الجنسي والديني مالا دليل على سوء مغبة النميمة أعظم منه

واعلم انه وان كان أكثر ما يؤثر على حياة الأمم ويبعث على زوال الدول هو فساد الاخلاق عامة إلا أن لفعل هذا الخلق «أي خلق النميمة والسعاية» خاصة أثراً قبيحاً في الوجود يربو على كل أثر من آثار فساد

الاخلاق وفقد التربية لانه اذا فشا في قوم فأكثر ما ينزع اليه الامراء توصلا بزعمهم الى اكتناه كنه القلوب و وقوفا على ضمائر الرعية وهيهات ان يجدوا وسيطا لنقل أخبار الناس اليهم الا من انغمس في حمأة الشر واطّرح رداء الحياء وغاب عليه حب الشهوة وفقد المروءة وتجرد عن الفضيلة فيسعى في التفريق بين الامير والمأمور والحاكم والمحكوم لزانى يريدها ودناءة يتوخاها وفي هذا من المضرة ما لايخفى على أعمى فضلا عن البصير اذ كلمة سوء واحدة تلقى لسلطان جائر مثلا تكفي لهدم ملك كبير، واستشراء شر عظيم، وقيام فتن عمياء، تضطرب لهـا الدهماء، كما سيمر عليك مفصلا في محله من هذا الكتاب ان شاء الله

(ومن أخباره في القادسية) ما رواه صاحب الاغاني ان عمر بن الخطاب كتب اليه أن فض ما زاد من أموال الغنائم على حملة القرآن فأتاه عمرو بن معديكرب فقال له : ما معك من كتاب الله تعالى ؛ فقال اني أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن : قال ما لك في هذا المال نصيب : وأتاه بشر بن ربيعة الخثعمي فقال : ما معك من كتاب الله ؟ قال بسم الله الرحمن الرحيم . فضحك القوم منه ولم يعطه شيئاً فقال عمرو في ذلك :

اذا قُتلنا ولا يبكي لنا أحدٌ ... قالت قريش ألا تلك المقاديرُ
نعطى السوية من طعن له نفذٌ ... ولا سوية اذا تعطى الدنانيرُ

وقال بشر بن ربيعة :

أنختُ بباب القادسية ناقتي ... وسعدُ بنُ وقاص عليّ أميرُ
وسعد أمير شرّه دون خيره ... وخير أمير بالعراق جريرُ
وعند أمير المؤمنين نوافل ... وعند المثنّى فضـة وحريرُ

تذكّر هداك الله وقعَ سيوفنا ... بباب قُدَيسٍ والمكرّ عسيرُ
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحي طائر فيطيرُ
اذا ما فرغنا من قراع كتيبة ... دلفنا لاخرى كالجبالِ تسيرُ
ترى القومَ فيها أجمعين كأنهم ... جمال بأحمال لهنّ زفيرُ

فكتب سعد الى عمر رضي الله عنه بما قال لهما وما ردّا عليه وبالقصيدتين فكتب اليه ان أعطهما على بلائهما . فاعطى كل واحد منهما الفي درهم

﴿ اعتزاله الفتنة ﴾

نريد بالفتنة فتنة عثمان وعلي وطلحة ومعاوية والزبير التي تحزّب فيها المسلمون احزابا كل حزب بما لديهم فرحون وهي الفتنة التي يقف دونها عقل الحكيم حائرا بين الاقدام على خوض عبابها واستكناه كنه خباياها و بين الاحجام عنها والقاء اخبارها على علاتها وغض الطرف عما انطوى في ثناياها . لا لانها أول بادرة بدرت في الملك وفتنة ظهرت في الدول كلاّ ان قيام الدول واستصفاء الملك انما يتم بوجود احزاب ينصرون النازع الى الملك واعوان يتبعون القوّة أو يناضلون عن صاحب الحق في كل قوم وعصر . وانما صبغ السلف لهذه الفتنة بصبغة دينية هو الذي يجعل الباحث بين اقدام واحجام مع انها فتنة سياسية تابعة لمجرى السنن الطبيعية في الدول اذ ما دامت شؤون البشر لا تستقيم الا بالوازع والمجتمعات لا تقوم الا بحاكم يدبر أمورها و ينظم شؤونها و ينفذ قوانينها بالخلاف على رئاسة الدول والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين اليه القادرين عليه

في كل أمة وجيل وتنازع البقاء في الملك أمر طبيعي كما هو في كل الاشياء كما سنفيض في هذا البحث عند الكلام على هذه الفتنة وانما اجتزأنا عنه بهذه المقدمة تمهيداً لما سيتلوه من الكلام في غير هـذا المحل ان شاء الله

رأى سـعد بن أبي وقاص ان الامة انقسمت في أمر الخلافة الى أحزاب كل حزب يرى ان صاحبه على حق ، وانه بالخلافة أحق ، وان الامر لا ينقضي إلا بالمغالبة بين النفر المتطلعين الى الخلافة وهذا يجر الى سفك الدماء وامتداد شواظ الحرب وان فتنة هذا شأنها فالغالب والمغلوب ملوم فيها وليس في طوقه رتق فتق فتقه الطموح الى الخلافة وسـد ثلمة اندفع منها تيار الامة فلم يسعه إلا اعتزال الفتنة والبعد عن مواقف الحرب حتى يتجلى الغبار وتنتهي الامور الى حدها ، ويعود السيف الى غمده ، فاعتزل خارج المدينة وأمر أن لا يخبروه بشيء حتى يجتمع الناس على امام

واعلم انّ سعداً من الحقيقين بالخلافة وهو أحـد الستة أصحاب الشورى الذين عهد اليهم عمر وقد كان له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها لاعن ضعف بل عن حب للسلامة وتجنب للانغماس في الدماء يدلك عليه ان ابنه عمر وابن أخيه هاشم أرادا ان يدعو الى نفسه وقال له ابن أخيه ان مائة ألف سيف تريده على الخلافة فأبى

روى ابن عساكر عن بعض أهل العلم انّ هاشماً قال له : ان ههنا مائة ألف سيف يرونك انك أحق الناس بهـذا الامر : فقال أريد من مائة ألف سيف سيفاً واحـداً اذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئاً واذا ضربت به الكافر قطع : فانصرف من عنده الى علي بن أبي طالب فكان في أصحابه وقاتل معه

وروى عن المطلب عن عمر بن سعد انه جاءه ابنه عامر (يدعوه لطلب الخلافة) فقال : أي بني أفي الفتنة تأمرني ان أكون رأسا لا والله حتى أعطي سيفاً ان ضربت به مسلماً نبا عنه وان ضربت به كافراً قتله

وانما يريد بهذا انه يعلم ان المتقاتلين جميعهم من أهل الاسلام وان له من صدق ايمان الجميع الظاهر وليس له ان يعلم السرائر ليقاتل الباغي بسيفه فاذا قتله فلا يأثم ولا يلام

ولما اشتد الامر على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعانى من شيعته ماعاناه من أعدائه قام على منبر الكوفة فقال : قد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فعصيتموني : فقام اليه فتى آدم فقال : انك والله ما نهيتنا ولكنك أمرتنا فدمرتنا فلما كان منها ما تكره برأت نفسك ونحلتنا ذنبك فقال علي : وما أنت وهذا قبحك الله والله لقد كانت الجماعة فكنت بها جاهلا فلما ظهرت الفتنة نجمت فيها نجوم قرن الماعز : ثم التفت الى الناس فقال يغبط سعداً وعبد الله بن عمر على اعتزالهما الفتنة : لله منزل نزله سعد وابن عمر لئن كان ذنباً انه لصغير مغفور ، وان كان حسناً انه لعظيم مشكور ، (أخرجه ابن عساكر)

وأما معاوية فقد طمع في اعتزاله واعتزال ابن عمر ومحمد بن مسلمة وكاتبهم يستميلهم للقتال معه فأجابوه بالرفض ، وكان كتب الى سعد بن أبي وقاص ما صورته :

سلام عليك أما بعد فانّ أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ونصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الامر ونظيراك في الاسلام وخفّت لذلك أم المؤمنين

فلا تكره ما رضوا ولا ترد ما قبلوا وانما نريد ان نردها شورى بين المسلمين والسلام :

فأجابه سعد بما صورته :

أما بعد فإنّ عمر لم يدخل في الشورى الا من تحل له الخلافة فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه الا باجتماعنا عليه غير انّ عليًّا كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلبته العرب ولو باقصى اليمن . وهذا الامر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره . وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيرا لهما . والله يغفر لام المؤمنين ما أتت : وفي هذا الجواب من اعتدال اللهجة وعدم مساس جانب أحد من المتقاتلين مايعرف منه ابتعاده عن سوء الظن بأحد منهم وتبرأه بتاتا من أمرهم . وروي انه كتب اليه أبيات شعر ولعلها كانت جوابا لكتاب آخر كتبه اليه وهي

معاوي دواؤك الداء العياء	وليس لما تجيء به دواء
أيدعوني أبو حسن علي	فلم أردد عليه ما يشاء
وقلت له اعطني سيفاً بصيراً	تميز به العداوة والولاء
أتطمع في الذي أعيا عليًّا	على ما قد طمعتَ به العفاء
ليوم منه خيرٌ منك حيًّا	وميتا أنت للمرء الفداء

ويؤخذ من هذه الابيات ان قلب سعد كان مع علي رضي الله عنهما لكنه رأى الحياد أسلم فلزمه واعتزل بحيث لا يكون له ولا عليه وقد عظم عليه قتل عثمان رضي الله عنهما واشتد عليه أمر هذه الفتنة لهذا قال : ما بكيت من الدهر الا ثلاثة أيام يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويوم قتل عثمان . واليوم ابكي على الحق فعلى الحق السلام : رواه ابن عساكر

ولما استتبت الخلافة لمعاوية جاء سعد بن أبي وقاص فدخل على معاوية فقال له أين كنت في هذا الامر ؟ فقال : انما مثلنا ومثلكم كمثل ركب كانوا يسيرون فاصابتهم ظلمة فقالوا : أخ أخ : فقال معاوية ما في كتاب الله : أخ أخ : ولكن في كتاب الله « وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُوا بينهما فان بَغَتْ احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تَفِيءَ الى أمر الله » فبايعه سعد وما سأله شيئاً الاَّ أعطاه (أخرجه ابن عساكر) عن حفص وأخرجه من طريق آخر بمعنى آخر وربما جاء معنا في غير هذا المحل ان شاء الله

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الامر له قال له : السلام عليك أيها الملك : فضحك معاوية وقال ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت : يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أتقولها جزلان ضاحكا والله ما أحب اني وليتها بما وليتها به : يريد انه وليها بالسيف لهذا لما صارت مغالبة صارت ملكا فقال له « أيها الملك » استخفافا بشأن الملك وتعظيماً للخلافة التي ذهبت مع الراشدين رضي الله عنهم أجمعين

﴿ باب ﴾

وفاته وصفته وولده

اجمع أهل الاخبار على ان سعدا رضي الله عنه اعتزل بعد الفتنة في منزل له بالعقيق على عشرة أميال من المدينة حتى توفاه الله ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من صوف فقال : كفنوني فيها لاني لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي علي وانما كنت أخبأها لهذا :

ولما مات حمل من العقيق على أعناق الرجال حتى أتي به المسجد فوضع عند بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بفناء الحجر فصلى عليه مروان ابن الحكم وكان والياً على المدينة وذلك سنة خمس وخمسين. وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة على قول من قال انه أسلم وهو ابن بضع عشرة سنة وأما على قول من قال انه أسلم ابن بضع وعشرين سنة فقد كان يوم وفاته ابن ثلاث وثمانين سنة . وهو آخر العشرة الكرام موتاً

وترك سعد ثروة حسنة لانه كان غنياً . قيل انه ترك مائتين وخمسين الف درهم : وعن بنته عائشة انه أرسل مرة الى مروان بن الحكم بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم

﴿ صفته ﴾

قال الواقدي قالت عائشة بنت سعد كان أبي رجلاً قصيراً دحداحاً غليظاً ذا هامة شثن الاصابع (١)

﴿ ولده ﴾

قال ابن قتيبة . ولد سعد عمر : ومحمد : وعامر : وموسى : ومصعب: وعائشة : وغيرهم : فأما عمر فقتله المختار بن عبيد لانه كان أميراً على الجيش الذي حارب الحسين بن علي رضي الله عنهما وقتله : وأما محمد فخرج مع الاشعث بن قيس فقتله الحجاج صبراً : وأما عامر فكان يروى عنه الحديث ومات سنة أربع ومائة : وأما مصعب فقد مات سنة ثلاث ومائة وقد روي عنه الحديث: وممن أعقب من أولاده عمر: ومحمد: وموسى

(١) قولها دحداحاً أي قصيراً وقولها شثن الاصابع أي خشنها

انتهى ما أردنا ايراده من سيرة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ويليه عمرو بن العاص وهو آخر من نذكر سيرته من أشهر مشاهير الرجال في دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عمرو بن العاص

﴿ باب ﴾

(حاله فى الجاهلية)

— نسبه وأصله —

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي وكنيته أبو عبدالله وقيل: أبو محمد وأمه النابغة بنت حرملة من بني عترة (وقيل عنزة) وأخوه لامه عمرو بن أثاثة العدوي. وعقبة بن نافع بن عبدقيس الفهري: وسأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال : سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بني عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكهة بن المغيرة. ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان . ثم صارت الى العاص بن وائل فولدت له فانجبت فان كان جعل لك شيء فخذه [1]

﴿ صناعته ومكانته في قومه ﴾

كان عمرو بن العاص كما ذكرنا في صدر الجزء الاول جزاراً ثم كان يختلف بالتجارة الى الشام ومصر ويقال ان سبب توجه فكره لفتح مصر هو ذهابه مرةً الى الاسكندرية وعلمه بغنى البلاد وثروتها وأما مكانته عند

---

(١) كان عمرو بن العاص يعير بأمه لانها كانت سبية لهذا قال للسائل ما قال

قومه فقد كانت عالية لشهرته بالدهاء والمكيدة حتى عدوه من دهاة العرب في الجاهلية وقالوا ان دهاتهم في الاسلام عمرو بن العاص . والمغيرة ابن شعبة . وقيس بن سعد بن عبادة . وأخباره في الدهاء كثيرة ستأتي فيما يلي من سيرته ان شاء الله

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

تأخر اسلام عمرو بن العاص الى ما قبل فتح مكة بستة أشهر أي سنة ثمان من الهجرة وأما سبب اسلامه فان قريشا أرسلته الى النجاشي في طلب جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة فلم يجب النجاشي طلبه . وقال له يا عمرو ؟ كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله انه لرسول الله حقاً ؟ قال : انت تقول ذلك : قال أي والله فأطعني فخرج من عنده مهاجراً الى النبي صلى الله عليه وسلم : رواه في أسد الغابة : وروى ابن عساكر في تاريخه عن محمد بن حفص التيمي : قال لما كانت الهدنة بين النبي (ص) وبين قريش ووضعت الحرب أوزارها خرج عمرو بن العاص الى النجاشي يكيد أصحاب رسول الله عنده وكانت له منه ناحية فقال له : يا عمرو تكلمني في رجل يأتيه الناموس كما يأتي موسى بن عمران قال : وكذلك هو أيها الملك ؟ قال نعم : قال فأنا أبايعك له . فبايعه له على الاسلام ثم قدم مكة فلقي خالد بن الوليد فقال : ما رأيك قد استقام الميسم والرجل نبي : قال خالد : وأنا أريده (وقد كان

خالد على أهبة المهاجرة اليه) قال وأنا معك . قال عثمان بن طلحة وأنا معك : فخرجوا فقدموا على النبي (ص) قال محمد بن سلام قال ابان قال عمرو بن العاص وكنت أسن منهما فقدمتهما لاستدبر أمرهما فبايعا على ان لهما ما تقدم من ذنوبهما . فاضمرت على ان أبايعه على ما تقدم وما تأخر فلما أخذت بيده بايعته على ما تقدم ونسيت ما تأخر

وفي رواية له أيضاً عن الحافظ أبي نعيم ان أصحاب عمرو لما بلغهم اسلامه أخذوه فغموه فافلت منهم مجرداً ليس عليه قشرة فأظهر للنجاشي اسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله ورده عليه :

وبالجملة فان عمرو بن العاص أسلم بعد طول اناة وبعد ان تحققت لديه نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وشهد له بها النجاشي وأيدها ما كان يخالج ضميره من النزوع الى الاسلام بعد اذ ظهرت كلمة أصحابه ظهوراً لايخفى على من له قلب او القى السمع وهو شهيد : لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » وقال « ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام » رواه ابن عساكر في تاريخه

واعلم انما أبطأ بعمرو واضرابه من قريش عن الاسلام التقليد والاستمساك بالعوائد التي تكاد تكون ملكة في النفوس لاينزعها الا أحد أمرين اما طول المعالجة والصبر ، واما القوة والقهر ، وهي ملكة من أقبح الملكات المتسلطة على نفوس البشر لقيامها مقام الحاجز بين الحق والنفس فلا تصل اليه الا بعد عناء شديد ، واحجام طويل ، وهذا كان شأن قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم الى التوحيد الذي تدرك البداهة ويؤيد العقل والحس انه خير من الشرك وعبادة الاصنام وانما أبطأ بهم عن قبول

الاسلام تسلط العوائد واستحكام ملكة التقليد يدلك عليه ما رواه ابن عساكر عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمرو بن العاص ما أبطأ بك عن الاسلام وأنت أنت في عقلك : فقال انّا كنا في قوم لهم علينا تقدم وبين توازن حلومهم الجبال ما سلكوا فجًّا فتبعناهم الا وجدناه سهلاً فلما أنكروا على النبي (ص) أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم فلما ذهبوا وصار الامر الينا نظرنا في امر النبي (ص) وتدبرنا فاذا الامر بيّن فوقع في قلبي الاسلام فعرفت قريش ذلك في ابطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم فبعثوا اليّ فتى منهم فقال : أبا عبد الله ان القوم قد ظنوا بك الميل الى محمد : فقلت له : يا ابن اخي ان كنت تحب ان تعلم ما عندي فوعدك الظل من حرا : فالتقينا هناك فقلت اني انشدك الله الذي هو ربك وربّ من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم : قال اللهم بل نحن : فقلت أفنحن أوسع معاشاً وأعظم ملكاً أم فارس والروم : قال بل فارس والروم : قلت فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى ان لم تكن الا هذه الدنيا وهم فيها أكثر فيها أمراً . قد وقع في نفسي انّ ما يقول محمد من البعث حق ليجزي المحسن في الآخرة باحسانه والمسيء باساءته . هذا يابن أخي الذي وقع في نفسي ولا خير في التمادي في الباطل : وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص : لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الاولين : فقال له عمرو وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لايستقر التخلص منه الا الى ما أراد الذي هو بيده : فقال عمر صدقت :

صحبته

ان عمرو بن العاص وان كان ممن تأخر اسلامهم الا انه كان حسن الصحبة محبباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد روي عنه انه قال ما عدل بي رسول الله وبخالد ابن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمت (رواه ابن عساكر) وذلك بلا ريب لثقته باسلامهما وكفائتهما في أمور الحرب وحسبهما فضيلة فتوحهما العظيم في مصر والشام بعدُ

و بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيساً على جيش فيه أبو بكر وعمر وذلك في غزوة ذات السلاسل التي تقدم الخبر عنها في سيرة أبي عبيدة لما نازعه ثمة على الامارة . وقد اظهر في هذه الغزوة من الكفاءة وحسن المكيدة ما حمده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى ابن عساكر عن اسماعيل بن أبي خالد عن عمرو بن العاص ان رسول الله بعثه الى ذات السلاسل فسأله أصحابه ان يأذن لهم ان يوقدوا النار ليلاً لبرد أصابهم فمنعهم . فكلموا أبا بكر ان يكلمه في ذلك فاتاه . فقال لابي بكر لا يوقد أحد منهم ناراً الا ألقيته فيها : فلقوا العدوّ فهزموهم فارادوا ان يتبعوهم فمنعهم : فلما انصرف ذلك الجيش الى رسول الله شكوه اليه فقال : يارسول الله اني كرهت ان آذن لهم ان يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم : وكرهت ان يتبعوهم فيكون لهم (أي للعدو) مدد فيعطفوا عليهم : قال فاحمد رسول الله أمره :

وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم الى عمان والياً على الصدقة وان يدعو الناس الى الاسلام فذهب ودعاهم الى الاسلام فآمنوا وكان الذي ساعده على ذلك جيفر وعياذ ابنا الجلندي وكان الملك منهما جيفر فاسلما وخليا

بينه وبين الصدقة فكان يأخذها من الاغنياء ويردها على الفقراء ولم يزل مقيما هناك حتى أتاه نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه كتاب أبي بكر مختوماً وفيه : ان لايحل عقالا عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لايعقل عقالا عقله رسول الله : فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلا ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فعزوه . ثم لما اضطرمت نار الردة شخص الى المدينه ومرّ منصرفه من عمان بمسلمة فدعاه الى أمره وقرأ عليه من قراءته . فقال له عمرو : والله انك لتعلم اني أعلم انك كذاب : ثم انصرف فمر بقرة بن هبيرة وقال له قرة : ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة : فأجابه جوابا يدل على بعد نظره وقوة جنانه اذ أظهر استهانته بردة العرب وهدد قرة بالحرب احتقاراً لشأن العرب واظهاراً للجلد الذي هو أنفع شيء للمسلمين في مثل موقفهم ذلك وقد مرّ الخبر عن ذلك في سيرة أبي بكر رضي الله عنه

وبالجملة فقد كان عمرو حسن الصحبة نافعاً في اسلامه وحسبه فضيلة كبيرة وخدمة عظيمة فتحه مصر وطرابلس الغرب وحروبه مع الامراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وسترى فيما يلي ان شاء الله : إلا أنه عيب عليه دخوله في غمار الفتنة العظمى وكونه كان اليد القوية فيها والكلام على هذا سيأتي في محله ان شاء الله



باب

حروبه وفتوحاته

فتح مصر وبرقة

قد مضى معنا في سيرة عمر بن الخطاب ذكر المواقع التي حضرها عمرو بن العاص في سورية والفتح الذي فتحه في فلسطين لما كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين ثمة فلم نرَ حاجة لاعادة ذكر ذلك وانما نأتي هنا على خبر فتحه مصر وطرابلس الغرب لانفراده بهذه المأثرة الجليلة التي هي من أعظم مآثر ذلك الرجل الكبير في الاسلام فنقول

كان عمرو بن العاص محباً للامارة طامحاً للعلا ذا نفس عالية لا ترضى بالحقير من الاعمال بل تطلب جليلها مهما قام دونها من المصاعب وترتب عليها من التبعات يدلك عليه اقدامه على دخول مصر بجيش قليل وعدة ضعيفة لما أذن له عمر بقصدها حتى كان مما قاله عثمان لعمر يومئذ (ان عمراً لجريء الجنان وفيه اقدام وحب للامارة فأخشى ان يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة) ومن تصفح تاريخ حياته ووقف على أعماله سواء في الفتح والامارة أو في دخوله غمار الفتنة علم انه رجل قد قلَّ ان تنجب بمثله الامهات لولا طمع فيه ربما أوخذ أحياناً عليه . على انه لم يكن طمعه في دنيات الامور بل في أبعدها غاية وأعصاها على غيره منالا وأي قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ويرغب في تدويخ ملك الفراعنة بجيش يقل عن الاربعة آلاف مقاتل يريد ان يقهر به أمة كان يربو عددها عن العشرة ملايين وكان في البلاد من حامية الروم وحدها اضعاف ما معه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبّون عنها

ان الذي اطمع عمراً بمصر ذهابه اليها في الجاهلية وعلمه بحالها ووقوفه على ثروة أهلها وخيرات ارضها ولكن اقدامه على قصدها بجيشه القليل يدل أنه رأى بعين البصيرة عقب وقائع الشام ان دولة الروم دالت وقواها خارت وان الله موف وعده للمسلمين قلوا أو كثروا وان جدة الدين والدولة ونزوع العرب الى الفتح وتكاتفهم على اعلاء شأن الاسلام فرصة لا ينبغي للعاقل تركها واستمهال عزيمة النفس في انتهازها فاقتحم البلاد اقتحام الواثق بالنصر العارف بأساليب الحرب المعتمد على كفاءة جند المسلمين الواقف على شؤون البلاد فافتتحها من أدناها الى أقصاها ورفع اعلام الاسلام على ربوعها فكان له بهذا العمل العظيم أعظم الفخر وأشرف الذكر أبد الدهر

قلنا فيما سبق ان سبب رغبة عمرو في فتح مصر هو دخوله اليها في الجاهلية ووقوفه من أحوالها على ما يحب . وقد نقل المقريزي عن ابن عبد الحكم في سبب دخوله عمرو الى مصر ما خلاصته ان عمراً قدم الى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش فاذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح . وكان عمرو يرعى ابله وابل أصحابه وكانت رعية الابل نوبا بينهم ، فبينا عمرو يرعى ابله اذ مرَّ به ذلك الشماس وقد اصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روي ونام الشماس مكانه وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد انجاه الله منها فقال لعمرو : ماهذه؟

فاخبره عمرو انه رماها فقتلها . فاقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال : قد احياني الله بك مرتين . مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية : وسأله عما اقدمه هذه البلاد فاخبره انه قدم مع أصحابه للتجارة فرغب اليه ان يصحبه الى الاسكندرية ليكافئه على عمله فأبى وما زال به حتى قبل ان يصحبه الى الاسكندرية بعد ان اخذ عليه العهد والميثاق ليفين بعهده معه وانطلق الى اصحابه فاستشارهم وقال لهم: انتظروني ولكم عليّ ان أشاطركم على النصف مما آخذ : وأخذ منهم معه واحدا يأنس به فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا الى مصر فرأى عمرو من عمارتها وكثرة اهلها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه . ومضى الى الاسكندرية فنظر الى كثرة ما فيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة اهلها فازداد عجباً . ووافق دخول عمرو الاسكندرية فيها عيدا عظيما يجمع فيه اشرافهم في ملعب مشهور ولهم كرة من ذهب يترامون بها فمن وقعت في كمه لم يمت حتى يملكهم وكان ذلك فيما اختبروه من تلك الكرة على ما وصفها فيه من مضى منهم وكان الشماس ألبس عمراً ثوب ديباج واجلسه مع القوم في ذلك المجلس حيث يترامون بتلك الكرة فرمى بها رجل منهم فاقبلت تهوى حتى وقعت في كمّ عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا ؟ هذا ما لا يكون ابدا : ثم ان الشماس وفي بما وعد عمراً وجمع له من أهل المدينة الف دينار وأصحبه برسوم ودليل فانطلق عمرو الى اصحابه وشاطرهم على النصف مما أخذ

هذا ما نقلوه عن سبب دخول عمرو الى مصر في الجاهلية وسواء صحت هذه الحكاية او لم تصح فانه ليس فيها شيء من الغرابة الا قولهم

عن الكرة ان القوم اختبروا أمرها واعتقدوا ان من وقعت في كه هذه الكرة صار ملكا عليهم . وليست المسألة مسألة اعتقاد بل ربما كانت من قبيل التفاؤل أو ان بعض الامارات التي يتناوبها الاشراف كامارة الجيش مثلا كانت لا تعطى إلا على هذا الشرط فأخطأ مؤرخوا العرب في النقل: وبالجملة فالذي أثار في نفس عمرو الرغبة في فتح مصر هو ما سبق له من دخولها والوقوف على أحوالها وأحوال أهلها يضاف اليه ماغرز في نفسه من حب الامارة والاقدام على جلائل الامور كما قال عنه عثمان رضي الله عنه . وقد تقدم معنا الخبر في سيرة عمر بن الخطاب (رض) عن كيفية مسير عمرو الى مصر وكان أول موضع قوتل فيه الفرما [١] قاتلته الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله عليه: وقيل انه كان بالاسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين (بنيامين) فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر كتب الى القبط يعلمهم انه لا يكون للروم دولة وانّ ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا فاذا صحت هذه الرواية يكون أكبر عون لعمرو على فتح الفرما هم القبط لان الفرما كانت حصينة جدا. وفي رواية ان فتح الفرما كان بعد فتح دمياط وتنيس ثم تقدم عمرو ولا يدافع إلاّ بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فحاصرها

(١) اختلف المؤرخون في موقع الفرما فمنهم من قال انها كانت على البحر الرومي ومنهم من قال انها على بحيرة تنيس وقد صارت خرابا وغمرتها المياه والمرجح انها لم تكن على البحر الرومي بل بعيدة عنه لرواية نقلها المقريزي عن يحيى بن عثمان قال كنت أرابط في الفرما وكان بينها وبين البحر قريب من يوم يخرج الناس والمرابطون على الساحل ثم علا البحر على ذلك كله. ويظهر من رواية ابن خرداذبه في الممالك والمسالك ان بين الفرما وبين بلبيس ثلاثة وثمانون ميلا وبين هذه والفسطاط أربعة وعشرون ميلا

حصاراشديدا ونقل المقريزي عن الواقدي ان المقوقس زوج ابنته ارمانوسه من قسطنطين ابن هرقل وجهزها بأموالها وحشمها لتسير اليه حتى يبني عليها في مدينة قيسارية (من سورية) فخرجت الى بلبيس وأقامت بها وأرسل أبوها جنداً الى حدود الشام كي لا يتركوا أحدا من الروم أو غيرهم يدخل أرض مصر مخافة أن يتحدث الناس بغلبة المسلمين على الشام فيدخل الرعب في قلوب عساكره . ولما أتى عمرو بلبيس حاصرها حصارا شديدا وقاتل من بها وقتل منهم زهاء ألف فارس وانهزم من بقي الى المقوقس وأخذت ارمانوسه وجميع مالها وسائر ما كان للقبط في بلبيس فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير اليه ابنته مكرمة في جميع ما لها مع قيس ابن أبي العاص السهمي فسر بقدومها . وكان هذا العمل من عمرو عملا جميلا يدل على حسن سياسة و بعد نظر

ثم ان عمراً سار من بلبيس الى بابل أو باب ليون وهو حصن كان بناه الفرس أيام تملكهم لمصر وكان يسميه العرب قصر الشمع وكان على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة في مصر القديمة أو الفسطاط ويقابله على ضفة النيل الغربية مدينة منف عاصمة البلاد يومئذ ومقر المقوقس صاحب مصر . وكان فيه حامية عظيمة وعليها قائد اسمه الاعيرج وكان المقوقس على الحامية أيضاً وقد اختلف المؤرخون فيمن كان على مصر يومئذ فنهم من قال الاعيرج ومنهم من قال الارطبون ومنهم من قال المقوقس ومنهم من قال ان المقوقس كان في الاسكندرية كما اختلفوا في أصل المقوقس هل هو يوناني أو مصري والذي ظهر لي ان الاعيرج والارطبون قائدان لان احدهما وهو الارطبون كان على جيوش الروم

في بيت المقدس وفرا الى مصر لما اخذها المسلمون

وأما المقوقس فهو امير مصر بلا ريب من قبل الروم وكان قصدي استقصاء خبر المقوقس للوقوف على جلية امره لكن مجلة المقتطف نقلت في الجزء الثالث من المجلد الثامن والعشرين فصلا عن كتاب انجليزي الفه حديثاً احد علماء الانجليز وهو الدكتور بطلر في تحقيق من هو المقوقس اغنانا عن معاناة البحث وخلاصة حكم المؤلف في هذا الكتاب على ما جاء في المقتطف ان المقوقس كان واليا و بطريركا على مصر من قبل الامبراطور هرقل وهو حكم يقرب من الصواب بدليل نفوذ سلطة المقوقس على المصريين يومئذ نفوذا لا يكون الا لمن بيده قوة السلطة الدينية على ان القرائن التي تحتف اخبار المقوقس مع القبط ومخابراته مع المسلمين تؤيد كونه كان بطريركا نافذ الكلمة في القبط . وكلمة صاحب القبط التي جاءت في تواريخ العرب ومخابرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمذكور ودعوته وقومه الى الاسلام كافية لتأييد ما ذهب اليه الدكتور والفصل الذي لخصه عن كتابه المقتطف لايخلو من فائدة فليراجعه من احب

نازل عمرو بن العاص الحصن وحاصر من فيه وقاتلهم قتالا شديداً يصبحهم ويمسيهم ولما ابطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه بذلك فأمده بأربعة آلاف رجل على كل الف رجل منهم رجل مقام الالف : الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة ابن مخلد . وقيل ان الرابع كان خارجة ابن حذافة وكان عمرو يومئذ في عدة قليلة فكان يفرق اصحابه ليرى العدو انهم اكثر مما هم وقيل ان الزبير جاءه باثني عشر الف مقاتل : ولما علم عمرو بقدوم الزبير تلقاه ثم اقبلا

نيران فلم يلبث الزبير ان ركب ثم طاف بالخندق ثم فرق الرجال حول الخندق وألح عمرو على القصر ووضع عليه المنجنيق فلم يتيسر اخذه وابطأ الفتح وكان الزبير رضي الله عنه من الشجعان المعروفين فقال : اني اهب نفسي لله ارجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما على جانب الحصن ثم صعد فامرهم اذا سمعوا تكبيرة ان يجيبوه جميعا فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من ان ينكسر وكبر الزبير فكبرت الناس معه وأجابهم المسلمون من خارج فلم يشك الروم ان العرب اقتحموهم جميعا فهربوا وعمد الزبير وأصحابه الى الباب ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن وفر القبط الى الجزيرة (أي جزيرة الروضة) على مراكب أعدوها لذلك

وتم بذلك الفتح وكان على يد البطل الجليل الزبير بن العوام رضي الله عنه كما رأيت لهذا ينكر بعضهم الفضل لعمرو بن العاص في فتح مصر وهو جهل فاضح وتعصب منكر لان فتح البلاد كلها انما كان بحسن قيادة عمرو ودربته ولم يكن عمرو بأقل شجاعة من الزبير أيضا رضي الله عنهما وعن كل رجال الفتح فان لكل منهم فضيلة في عمل وخدمة جليلة للاسلام

رأى المقوقس شدة قتال المسلمين وصبرهم وعلى انهم لا يزالون يقاتلون الروم والقبط حتى تصير اليهم البلاد فاستشار أصحابه بمصالحة القوم وبعث الى عمرو يقول : انكم قوم قد ولجتم في بلادنا والححتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد اظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل (وكان

الوقت وقت الفيضان) وانما أنتم أسارى في أيدينا فابعثوا الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله ان يأتي الامر فيما بيننا وبينكم على مانحب وتحبون وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم

ولما أتت الرسل الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين ليروا حال المسلمين ثم ردهم وأرسل معهم للمقوقس يقول :

انه ليس بيننا وبينكم إلا احدى خصال ثلاث اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان أبيتم. فالجزية وأما جاهدناكم بالقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين

علمنا ان عمراً حبس رسل المقوقس ليروا حال المسلمين ويخبروا قومهم عنه لعلمه ان سيرة المسلمين وحدها كانت كافية يومئذ لاعتبار القوم واتعاظهم وتسليمهم بالايدي للمسلمين وقد أصاب عمرو بهذا الامر المرمى ولم يخطىء في الظن اذ لما عاد رسل المقوقس سألهم : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا :

« رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة . والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة . ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة . انما جلوسهم على التراب . وأكلهم على ركبهم . وأميرهم كواحد منهم . مايعرف رفيعهم من وضيعهم . ولا السيد منهم من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم » :

هذه الاخلاق الطاهرة والسيرة الجميلة التي رفعت من أقدار القوم وملأت منهم قلوب الاعداء وعيونهم في كل مكان حلوه وبلد قصدوه فكانت الشعوب لاتلبث ان ترى سيرتهم وتسمع بأخلاقهم فتعطيهم أيدي

الطاعة وتترك اليهم مقاليد الامور توخياً للسلامة ورضى بسيادة قوم ذلك حالهم وتلك السيرة الطيبة سيرتهم : ومنهم المقوقس الذي لما سمع من الرسل ما سمع قال لقومه : لو ان هؤلاء استقبلوا الجبال لازالوها . وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم تغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقووا على الخروج من موضعهم . ثم أرسل الى عمرو ان يبعث اليه من يكلمه بشأن الصلح فبعث عبادة بن الصامت : وقيل بل طالب منه الاجتماع به وكان مما بعث به اليه قوله :

اني لم ازل حريصاً على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت اليَّ بها . فأبى ذلك من حضرني من الروم والقبط فلم يكن لي ان أفتات عليهم وقد عرفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم ورجعوا الى قولي فاعطني أمانا أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم لنا ذلك جميعا وان أبيتم رجعنا الى ما كنا عليه :

فاستشار عمرو أصحابه وكانوا عرفوا جانب الضعف من القبط وطمعوا بالفتح فأشاروا عليه بان لا يجيبه الى الصلح وكان عمرو ينزع اليه ويعرف فائدته فأخبرهم بعهد عمر اليه في ان من أجابه الى خصلة من الثلاث يصالحه : ثم اجتمع عمرو بالمقوقس واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ منهم الحلم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء . وعلى ان للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر

من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم وان لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها فشرط ذلك كله على القبط خاصة . وأحصوا عدة القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران : رفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس « ستة ملايين » فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار « اثنى عشر مليون »

هكذا نقل المقريزي رواية هذا العهد وعدد المصريين الذين ضربت عليهم الجزية في سياق خبر الصلح مع المقوقس وفي هذا نظر لا يخفى على بصير اذ أن الذي يظهر من سياق الاخبار ان صلح المقوقس لم يشمل كل المصريين لان من البلاد ما أخذ عنوة بعد عقد الصلح . وعلى تقدير شمول الصلح لكل المصريين كيف يعقل ان يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين مع انّ البالغين الحلم لو كانوا ربع سكان البلاد للزم ان يكون عدد جميع سكانها من شيوخ وأطفال وشبان ونساء أربعة وعشرين مليون . وهو بعيد عن الصواب . لا سيما وقد جاء في بعض الروايات ان جزية مصر وخراجها معاً بلغا على عهد عمرو بن العاص الفي ألف دينار « مليوني دينار » . ومنها ما رواه البلاذري في فتوح البلدان عن يزيد بن أبي حبيب قال : جبى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها ألفي ألف . وجباها عبدالله بن سعد بن أبي سرح « في خلافة عثمان » أربعة آلاف ألف . فقال عثمان لعمرو : انّ اللقاح بمصر بعدك قد درّت البانها : قال : ذلك لانكم أعجفتموها :

والفرق بين هذه الرواية والرواية الاولى عظيم كما ترى على انه جاء

في بعض الروايات أيضا ان الذي جباه عمرو هو اثنى عشر مليونا والذي جباه ابن أبي سرح أربعة عشر مليونا . وكما يضطرب الفكر في مقدار تلك الجزية يضطرب أيضا في قولهم ان الصلح تم مع المقوقس لما فتح عمرو بابليون عن جميع القبط في أسفل مصر وأعلاها وأحصوا بالايمان المؤكدة مع ان هذا منقوض بالبداهة التي تؤيدها رواية لابن عبد الحكم نقلها المقريزي في فتح الاسكندرية . ان عمرو بن العاص انما صالح المقوقس لما فتح الاسكندرية وهكذا قال الطبري وابن خلدون وهو الاقرب للتوفيق بين تلك الروايات اذ مانخال وقوع هذا الاحصاء سواء صح عدده أو لم يصح الآ بعد فتح الاسكندرية وبقية البلاد واجراء الجميع مجرى الصالح لما هو المشهور عن عمر بن الخطاب في انه اعتبر كل القبط أهل ذمة وعهد وأقرهم على أراضيهم وروى البلاذري ان قرى من مصر قاتلت فوقع سباؤهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة : وبالجملة فهذا بحث طويل يحتاج الى تمحيص وربما نعود اليه في الكلام على حالة مصر الاجتماعية ان شاء الله [1]

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ماتعاهدا عليه شرط المقوقس للروم على ان يُخيَّروا بين الرضى بما رضي به القبط . وبين اللحاق ببلاد الروم . وكتب

(١) بعد كتابة ما كتبناه هنا قرأنا كتاب العهد الذي أعطاه عمرو للمقوقس كما تراه مبسوطا فى باب أخباره فاتضح لنا منه أن عمرا كتب للمقوقس فى كتاب العهد على أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا العهد أي اذا رضوا به جميعهم بعد تمام الفتح : وبهذا انحل الاشكال واتضح أن المصريين جميعهم قبلوا بما صالح عليه المقوقس عمرو بن العاص بعد الفتح ومن ثم كان الاحصاء

المقوقس الى ملك الروم بما تم عليه الصلح فكتب اليه كتابا يوبخه فيه على التسليم ويوهن جانب المسلمين وكتب بمثل ذلك الى قواد الروم في الاسكندرية وغيرها فاعادوا الكرة على المسلمين فقاتلهم عمرو حتى ألجأهم الى الاسكندرية ثم حاصرهم فيها وافتتحها عنوة وجلا عنها الروم

هكذا انتهى فتح بابليون وأعطى المقوقس بيده ويد القبط للمسلمين مع انه يوناني الاصل وأكثر الروم وقتئذ أبوا ان يوافقوه على الصلح وقاتلوا المسلمين في كل بلد أراد فتحه عمرو وقواده الذين بعثهم لاتمام فتح البلاد

والذي يظهر للتأمل في أخبار فتح بابليون ان نظام الدفاع في البلاد المصرية كان مختلا جداً اذ ان عمرو بن العاص كان قليل الجند ولا يسعه ترك حامية من جنده في البلاد التي افتتحها في دخوله الى مصر لتحفظ خط الاتصال بينه وبين جيوش المسلمين بالشام فهو بالضرورة جاء بكل جيشه الى بابليون واصبح في قلب البلاد فلو كان ثمة نظام حسن للدفاع عند الروم كما كان ذلك في سورية لا تكفأوا عليه من اطراف البلاد وحاصروه في مستقره حصاراً لامناص له بعده من الموت أو التسليم ولعل السلطة العامة لم تكن يومئذ متوفرة للمقوقس وكان عمال الاطراف كل واحد منهم مستبدا على الآخر يعد أسباب الحيطة لنفسه دون غيره . وربما كان هذا الامر من أهم الاسباب التي دعت لتسليم المقوقس وطلبه الصلح والامان للقبط كما كانت لهذا أسباب أخرى أيضا ـ منها نفور القبط من سلطة الكنيسة الشرقية وتأففهم من سلطان الروم كما يقول مؤرخو المسيحيين ، ومنها تحقق المقوقس من علو شأن المسلمين واستحالة

النخلاص من الرضوخ لسيادتهم بعد ان دوخوا الشام وازعجوا دولة الروم وقهروا الامبراطور هرقل وكسرى يزدجرد يدلك على هذا اجتهاد المقوقس في منع أخبار المسلمين عن المصريين لما قهروا الروم في سورية خوفاً من ان يفت ذلك في عضدهم ويدخل الوهن والفزع على نفوسهم

ومنها وهو الاهم تواتر الاخبار عن حسن سيرة المسلمين في البلاد التي افتتحوها واطلاقهم لاهلها حرية الفكر والدين وعدم مسهم بشيءٍ من الاذى والجور كما مرت الشواهد الكثيرة على ذلك في هذا الكتاب

وهذا ما دعا البطريرك بنيامين الى ممالأة عمرو وتحريضه القبط على التسليم كما سترى الخبر عن ذلك آخر الفصل ويحتمل أيضا ان تكون مساعدة المقوقس للمسلمين ناشئة عن طمعه بالاستقلال لانه من أصل مصري وكان ميالا للاستقلال منذ دخول الفرس الى مصر كما يقول جبون لو لم يوهن هذا الرأي اجماع أكثر المؤرخين على انه من أصل يوناني وجبون يقول انه كان من أشراف البلاد وكان ربما تظاهر بالاستقلال على ان الدكتور بطلر يرى ان نفوذه على القبط انما كان كبيراً لانه كان والياً وبطريركا معا كما تقدم قوله هذا والله أعلم

لما بعث الامبراطور الى المقوقس ينكر عليه فعله ويوبخه جمع جماعة الروم عنده وأعلمهم انه لم يصالح المسلمين الا صونا لمصلحة البلاد بسبب ما عرف عنهم من القوة والشجاعة وما سبق لهم من قهر الامبراطور وجيوشه في سورية وما شاهده بنفسه من أخلاق العرب وأحوالهم ودرجة قوتهم واستعدادهم ثم قال لهم : واعلموا معشر الروم أني لا أخرج مما دخلت فيه وما صالحت العرب عليه واني لأعلم انكم سترجعون غدا الى قولي

ورأيي وتتمنون لو كنتم أطعتموني وذلك اني رأيت وعاينت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة : ثم أقبل المقوقس الى عمرو فقال له : ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب اليّ والى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم . ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن أطاعني وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقدتهم . وأما الروم فأنا منهم بريء وأنا أطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال ـ لا تنقض بالقبط وادخلني معهم وألزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاقدتك عليه فهم متمون لك على ما تحب، وأما الثانية ان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً فانهم أهل ذلك لاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني ، وأما الثالثة فأطلب اليك ان أنا مت أن تأمرهم أن يدفنوني بجسر الاسكندرية :

فأنعم عليه عمرو بذلك وأجابه الى ما طلب على ان يضمنوا له الجسرين ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق والجسور ما بين الفسطاط الى الاسكندرية فتم له ذلك وصارت القبط له أعوانا كما جاء في الحديث

وأنت ترى ان هـذا الكلام يوهم ان الصلح تم مع كل القبط في أعلا مصر وأسفلها مع ان عمرا تم بعد فتح بابليون فتح البلاد التي لم تذعن بالطاعة كما أشرنا اليه قبل فلا ندري هل استعصى أهلها بعد ورود كتب الروم على أمراء الروم بعدم التسليم والطاعة وبمحاربة المسلمين أم كان

الذين دخلوا بالحرب بعد ذلك مع المسلمين هم حامية الروم التي في البا
واليك بقية أخبار الفتح فمحصها ان شئت

روى البلاذري ان عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد
ابن حذافة السهمي الى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها
مثل حكم الفسطاط . ووجه خارجة بن حذافة العدوي الى ال
والاشمونين وأخميم والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك . و
عمير بن وهب الجمحي الى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودق
وبنا . وبوصير ففعل مثل ذلك . ووجه عقبة بن عامر الجهني ويقال ور
مولاه صاحب سوق وردان بمصر الى سائر قرى أسفل الارض ف
مثل ذلك . فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خ

وذكر المقريزي ان الذي بعثه عمرو الى دمياط هو المقداد بن الا
وان الذي بعثه الى الفيوم هو ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفي
أهل الفيوم فلم يقاتلوا وأعطوا بأيديهم وأما أهل دمياط فقاتلوا وكا
دمياط أمير اسمه الهاموك استعد لقتال المسلمين فلما جاء المقداد
وقتل ابنه فانهزم وعاد الى دمياط واستشار قومه وكان فيهم رجل ح
عاقل قد حضر الشورى فقال : أيها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له
استغنى به أحد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهؤ
العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد
لأحد عليهم قدرة . ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع .
القوم قد أيدوا بالنصر والظفر . والرأي ان نعقد مع القوم صلحاً نا
الامن . وحقن الدماء . وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالا من المقوق

هذه النصيحة ولا نكران للحق نصيحة صادق عاقل وهي نافعة لو وجدت من الهاموك اذناً صاغية ولكنها لم تجد لانه لم يعبأ بقوله وغضب عليه فقتله وشرّ الاخلاق الحمق والتسرع . وكان للرجل ابن عاقل أيضاً اسمه شطا فعرف جناية أبيه على الرجل وعلى قومه أيضاً اذا أصرّ على قتال العرب وكان له دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها ولما علم الهاموك بما وقع سقط في يده واستأمن للمقداد فتسلم المقداد البلد وجاءه شطا وأسلم ثم لكي يظهر صدقه وصداقته للمسلمين خرج الى البراس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوّهم وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس(١) وكان عليها رجل من العرب المتنصرة يقال له أبو ثور فبرز اليهم في نحو عشرين ألفاً من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزم أصحابه وامتلك المسلمون البلد

قدمنا ان الامبراطور كتب الى من بالاسكندرية من الروم بأن يأذنوا العرب بالحرب و بعث العدة والجند . وكان عمرو بن العاص ينتظر انحسار النيل ليتمكن من الخروج ولما أمكنه ذلك خرج وقدعقب له القبط الاسواق

(١) تنيس هذه كانت قرب دمياط على عشرة أميال منها وقد اطنب بذكرها المقريزي وذكر انه كان فيها من البساتين والمصانع والمعامل والغنى والثروة ما لا يوجد فى بلد مصر وكان يصنع فيها ثوب للخليفة يسمى البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج الى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار ولم تزل تنيس عامرة حتى خربها الملك الكامل فى سنة أربع وعشرين وستمائة (لمهاجمة الفرنج لها) فاستمرت خرابا ولم يبق منها الا رسومها فى وسط البحيرة

وأقاموا له الجسور وفاء بالمعاهدة التي تمت بينهم وسمع بذلك الروم فاستجاشوا واستمدوا وقدمت عليهم مراكب عليها جمع عظيم من الجند بالعدة والسلاح فخرج اليهم عمرو متوجهاً الى الاسكندرية فلم ير أحداً حتى بلغ مريوط فلقي فيها طائفة من الروم فقاتلهم قتالاً خفيفاً فهزمهم ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا ثلاثة ايام ثم فتح الله على المسلمين وولى الروم اكتافهم . ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بضعة عشر يوماً وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة فأصابته جراحات كثيرة فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فأنشد :

أقول لها اذا جشأت وجاشت رويدك تحمدي او تستريحي

ثم رجع الرسول الى عمرو فأخبره بما قال : فقال عمرو : هو ابني حقاً: وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف . ثم فتح الله على المسلمين وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن . فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة :

والذي أحسبه ان القبط انما ألجأهم الى الانحياز للمسلمين انهم لما عاقدوهم على الصلح وغضب من ذلك الامبراطور هرقل خافوا ان ينتقم منهم ومن المقوقس اذا هو ظفر بالمسلمين فكانوا عوناً لهؤلاء تخلصاً من سيادة الروم وتفادياً من الوقوع ثانية في شرك الامبراطور وان ينالهم منهم أذى على ممالأتهم للمسلمين

اهتم الامبراطور هرقل لمهاجمة العرب للاسكندرية وحصارهم لها وخاف من تقلص ظل سلطانه عنها كما تقلص عن سورية فعزم على الشخوص

بنفسه الى الاسكندرية وبينا هو يتجهز للسفر فاجأته المنون وكانت وفاته على قول العرب سنة عشرين مع انه توفي سنة (٦٤١ م) وهي توافق سنة (٢١ هـ) فلعل وفاته كانت في الحصار الثاني للاسكندرية فانكسرت بموته شوكة الروم واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية واقتحموا الحصن فجاشت عليهم الروم وقاتلوهم أشد قتال حتى أخرجوهم من الحصن جميعاً الا أربعة نفر تفرقوا في الحصن وأغلقت عليهم الابواب وهم عمرو بن العاص ومَسْلَمَةُ بن مخلد واثنان آخران فالتجأوا الى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه واحترزوا فكلمهم واحد بالعربية ان يخرجوا والروم يفادون بهم أسراهم فأبوا وخاف الروم من اقتحامهم فقال لهم الرومي هل لكم الى خصلة وهي نصف فان غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وان غلب صاحبكم صاحبا خلينا سبيلكم الى أصحابكم . فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه فتداعوا الى البراز فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدته فأراد عمرو ان يبارزه فمنعه مسلمة وقال ما هذا ؟ تخطئ مرتين تشذ من أصحابك وأنت أمير وانما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لايدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك ؟ مكانك ؟ ! وأنا أكفيك ان شاء الله تعالى : فقال عمرو دونك فربما فرجها الله بك فبرز مسلمة للرومي فتجاولا ساعة ثم أعانه الله وقتل الرومي ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا يدري الروم ان أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك وأسفوا

وكان مسلمة برز لرجل رومي وهم على الحصار فصرعه الرومي فاسمه

عمرو كلاماً يؤذيه فلما خرجوا هذه المرة ورأى عمرو من كرم أخلاق مسلمة ما رأى استحيي عمرو منه وقال له استغفر لي ما كنت قلت لك فاستغفر له . وقال عمرو ما أفحشت قط الا ثلاث مرات مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة وما منهن مرة الا ندمت وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت ووالله اني لارجو ان لا أعود الى الرابعة

أبطأ على عمر بن الخطاب خبر الفتح وقال والله ما أبطأوا بالفتح الا لما أحدثوا وكتب الى عمرو يلومه على الابطاء ويحذره من ان يحدث المسلمون في اخلاقهم ما يبطىء بهم في الفتح ويأمره ان يخطب الناس ويحضهم على القتال والصبر وحسن النية ويقدم القواد الاربعة الذين ارسل له معهم المدد وهم الزبير والمقداد ومسلمة وعبادة في صدر الجيش ويصدم بهم العدوّ صدمة واحدة : فلما جاءه الكتاب قرأه على المسلمين وفعل ما أمره به عمر فكان الفتح ودخل المسلمون المدينة بعد حصار ستة أشهر وقيل أكثر من ذلك

وتتبع عمرو الفارين في البر من الروم وقيل ترك حامية في المدينة وقفل الى الفسطاط فبلغه نكث الروم في الاسكندرية وقدوم مراكب تحمل العدة والرجال وانهم قتلوا الحامية فعاد الى الاسكندرية فوجد الروم قد تحصنوا وامتنعوا فحاصرهم حتى افتتحها وكان فتحها الثاني على يد رجل يدعى ابن بسامة طلب من عمرو ان يؤمنه على ارضه وماله ففعل ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو الى المدينة وفر الروم في البحر حيث أعدت لهم المراكب وارسل عمرو بخبر الفتح الى عمر بن الخطاب مع معاوية بن خديج ثم كتب اليه يصف له حال المدينة وعمرانها وان المسلمين يطلبون

قسمتها بينهم فكتب له ينهاه عن قسمتها ويأمره بان يجعل الاسكندرية ذمة ويضرب على أهلها الخراج ليكون عونا لهم على عدوهم . ففعل وتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط وما زال عمر بن الخطاب بعد ذلك يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية وكان لا يغفلها ويكشف مرابطتها خوفا من الروم

هكذا تم لذلك الفاتح الجليل فتح الاسكندرية التي كانت أجمل مدن العالم في وقتها وأغناها وأوسعها تجارة وأزهاها وذلك ما ذكره مؤرخو العرب عن كيفية فتح الاسكندرية وأما ما ذكره الافرنج فأكثره مأخوذ عن تواريخ العرب ومنهم المؤرخ الانكليزي الشهير جبون فانه نقل أخبار فتحها كما جاء في تواريخ العرب وزاد عليها ما نقله عن يوتيخوس المؤرخ القبطي ان العرب حاربوا على اسوار الاسكندرية كالاسود وانهم فتحوها بعد حصار ١٤ شهراً وقتل ٢٣ الفا من المسلمين . على انا لا نسلم له بهذه الرواية لان جيش المسلمين كله لم يبلغ هذا العدد يومئذ

تحقيق الكلام في حريق مكتبة
(الاسكندرية)

لغط بعض المتأخرين بحادثة حريق مكتبة الاسكندرية وان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية وجد فيها مكتبة عظيمة فاستأذن أمير المؤمنين عمر عن حرقها وأحرقها وهو خبر مختلق لا اصل له من الصحة واغرب مافيه من الاغراق في الكذب الذي يدل على عدم صحته ان قالوا ان عمرو ابن العاص أمر بتوزيع تلك الكتب على الاربعة آلاف حمام التي ذكروا

انها كانت موجودة في الاسكندرية وانها كفتها ستة اشهر . فلو ان ذلك الاخرق الذي كتب هذا الخبر قدر لكل حمام في كل يوم مائة مجلد (وهو قليل) لبلغ عدد المجلدات التي أحرقت ٧٢ مليون مجلد فأي مكتبة في العالم يوجد فيها مثل هذا العدد من الكتب وأي عاقل يتصور صدق هـذا الخبر الذي ينقض بعضه بعضاً على ان المشهور عن هذه المكتبة طروء الحريق عليها أكثر من مرة قبل الفتح الاسلامي وان الذي بقي منها نقل بعضه امبراطرة الرومان الى القسطنطينية وما بقي احرقه الامبراطور تيودورس لما أمر بحرق الهيا كل الوثنية في الاسكندرية وأيد هذا الرأي سديو في تاريخه المسمى خلاصة تاريخ العرب

والذي يدلك على اختلاق هذا الخبر انه لم يرد في تواريخ المتقدمين من اهل الاخبار كالطبري واليعقوبي والكندي وابن عبد الحكم والبلاذري وهذه هي التواريخ التي نقل عنها المتأخرون أخبار الفتح وهي موجودة بين ايدينا الا تاريخ الكندي وتاريخ مصر لابن عبد الحكم ومع ذلك فقد نقل عنهما المقريزي والسيوطي أخبار الفتح ولم يأت في تلك الاخبار ذكر لمكتبة الاسكندرية البتة . بل اغرب من ذلك ان يوتيخوس الذي هو مؤرخ معاصر لذلك الفتح لم يذكر حريق تلك المكتبة . وهذه كتب المحدثين التي أحصت بالسند الصحيح كل سيرة عمر بن الخطاب لم يرد فيها شيء من ذلك البتة وانما نقل هذا الخبر بعض المتأخرين عن غير روية ولا تحقيق ونقله الافرنج على صورته الغريبة عن أبي الفرج المطلي مع انه لم يرد في تاريخ احد من المتقدمين على تلك الصورة الغريبة ولا على غيرها . على ان الخبر على ما فيه من الغرابة والاغراق في الباطل الذي يكذب بعضه

بمضا قد صار عنـد علماء البحث مفروغاً منه لتحقق بطلان نسبة حرق هذه المكتبة لعمرو بن العاص وانما أوجد فكرة هـذا البحث وجود ذلك الخبر في تاريخ أبي الفرج . وانّا زيادة في البيان ودفعا للريبة نقل هنا كل ما عثرنا عليه من كلام العلماء والمؤرخين عن هذه المكتبة فنقول

افرد جبون في تاريخه (سقوط الامبراطورية الرومانية) فصلا مخصوصا يبحث فيه عن حرق مكتبة الاسكندرية ومما جاء في ذلك الفصل بعد حكايته لكيفية حرقها وما ذكره أبو الفرج عنها قوله: « بعد ما نُقل كتاب أبي الفرج الى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة الكتّاب تأسفوا كلهم على احتراقها لضياع كثير من العلم والادب فيها وأما أنا (يعني نفسه) فاني شديد الميل الى انكار الحقيقة والنتيجة» : يعني أنه ينكر حقيقة حرقها وينكر انه كان فيها شيء من العلم والادب

وجاء في ذلك الفصل أيضاً قوله

والغريب ان هذه الرواية يكتبها رجل من أطراف مادي (مملكة الفرس) ويسكت عنها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهما يوتيخوس الذي كتب تاريخ الاسكندرية في القرن السادس

وجاء في ذلك الفصل أيضاً : ان تعاليم الاسلام تخالف هذه الرواية لأن تعاليمه ان الكتب الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة في الحرب لايجوز احراقها وأما كتب العلم والفلسفة والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فانه يجوز الانتفاع بها

ويقول في خاتمة ذلك الفصل : اذا كان ما أحرق من هذه المكتبة في الحمامات من كتب المجادلات الدينية بين الآريوسيين وأصحاب الطبيعة

الواحدة فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر:

هذه خلاصة ماجاء في تاريخ جبون الا ان في حاشية هذا الفصل الذي كتبه جبون كتابة يرد فيها كاتبها عليه بظهور كتب عربية (يعني في اروبا) بعد عصر تأليف التاريخ تؤيد ماجاء في تاريخ أبي الفرج وذكر من تلك الكتابة تاريخ ابن خلدون ورحلة عبد اللطيف البغدادي وغيرهما كما سترى بعد في الفصل الآتي المنقول عن رسالة شبلي افندى النعماني أستاذ اللغة العربية في مدرسة على كده بالهند سابقاً وناظم مدرسة العلوم بحيدر آباد الدكن الآن

ألف ذلك الفاضل رسالة باللغة الاوردية ترجمت الى الانكليزية في الرد على من قال بحرق عمرو لمكتبة الاسكندرية لا انَّا لم نظفر بتلك الرسالة فاجتزأنا من مضمونها بما لخصته عنه مجلة الهلال في سنتها الثانية قالت بعد مقدمة حسنة في تقريظ الرسالة

وخلاصة ماأراد اثباته (يعني مؤلف الرسالة) ان أول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج بن طبيب يهودي اسمه قارون ولد سنة (١٢٢٦ م) في ملاطية وكان ولده قد تنصر فشب هو على النصرانية وأتقن اللغتين السريانية والعربية فعينوه أسقفا لمدينة جوبا وهو في الحادية والعشرين من عمره وما زال يرتقي حتى لم يبق فوقه من الاكليريكية إلا منصب البطريرك ثم ألف تاريخاً في اللغة السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتابا في العربية سماه مختصر الدول وهو أول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق الاسكندرية وتناقلها عنه كتاب الافرنج الى هذه الغاية

حتى قام المؤرخ جبون الانكليزي فانتقد هذا الرأي (وهو الانتقاد الذي تقدم) وأظهر ارتيابه في صحته لعدم وجود الادلة عليه لانه كتب بعد فتح الاسكندرية بستمائة سنة ولم يذكره أحد قبل ذلك فانتبه مؤرخو الافرنج من غفلتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول. غير ان المجتهدين منهم في خلع هذه التهم عن الافرنج والباسها للعرب عادوا فقالوا ان هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط وانما ذكرها المقريزي وعبد اللطيف البغدادي وحاجي خليفة من مؤرخي الاسلام حتى قال بعضهم ان ابن خلدون أيضا قد ذكرها

قال الهلال ثم أخذ صديقنا (أي مؤلف الرسالة) في تفنيد هذه الاسانيد فقال :

أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا وكل من اطلع عليه يعلم ان لاذكر لهذه الحادثة فيه على الاطلاق . أما المصادر الثلاثة الباقية فاثبت أولا انها لاتعتبر ثلاثة مصادر مستقلة لان المقريزي ذكر المكتبة نقلا عن عبد اللطيف حرفا حرفا فيبقى عبد اللطيف وحاجي خليفة . أما عبارة حاجي خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الاسكندرية وانما أشار الى ان العرب في صدر الاسلام لتعلقهم بالوحي وخوفهم من تسلط العلوم الاجنبية على عقولهم كانوا (على ما قيل) يحرقون الكتب التي يعثرون عليها في البلاد التي يفتتحونها . فيظهر من ذلك ان عبارة حاجي خليفة لاتفيد ماأراده لانه انما يريد الاشارة الى عدم اعتناء العرب بالعلم ولكي يؤيد قوله ألمع الى مسألة حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة

أما عبد اللطيف البغدادي فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السوارى وهذا نص عبارته « وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها

وأرى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارستطاليس وشيعته من بعده وانه دار العلوم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بأمر عمر رضي الله عنه » فيظهر من نص العبارة انه ذكر مسألة المكتبة بطريق العرض وكانت أشبه بخرافة تتداولها الالسنة فذكرها على علاتها على ان عبارته هذه بجملتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث

ثم أعقب هذا بالادلة على عدم امكان احتراق المكتبة بأمر الخليفة عمر أو غيره من الخلفاء أو الامراء المسلمين وأثبت أخيراً انها انما احترقت قبل الاسلام أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان وأتم على باقيها بطاركة الاسكندرية قبل الاسلام :

انتهى ما لخصه الهلال عن رسالة شبلي افندي النعماني واليك ما كتبه المرحوم علي باشا مبارك في الخطط التوفيقية في شأن هذه المكتبة نقلا عن مؤرخي الافرنج قال :

قد ذكر أعيان مارسلون عند التكلم على السير ابيوم « بناء قديم بالاسكندرية ومحله يعرف بعامود السوارى » انه كان به دار الكتب الكبيرة التي كانت ملحقة بالسرايات . ويؤيد ذلك ماذكره وتروف حيث قال انه كان بمدينة الاسكندرية دار كتب غير الكبيرة ولم يكن ثم غير الموجودة في معبد السير ابيوم ولبعدها عن الميناء لم تصلها الحريقة التي احترقت فيها السراية وملحقاتها عند محاصرة الاسكندرانيين قيصر . وقد قيل ان عدد ما كان بها من الكتب يبلغ ٣٠٠٠٠٠ مجلد وفي زمن كيلوباتره أضيف اليها مائتا ألف مجلد كانت بدار كتب مدينة بيرجام فأخذها انتوان معشوقها وأهداها اليها وبعد احتراق دار الكتب الكبرى صار لا يوجد بمدينة

الاسكندرية غيرها و بعدما ان كانت المدرسة ودار التحف من ضمن ملحقات السرايات ألحقا بمعبد السرابيوم ومن ذلك الحين اتسعت شهرته الى القرن الرابع من الميلاد ، ونقل أمبير الفرنساوي ان هذا المعبد احترق مرتين مرة في زمن القيصر ماركوبل ومرة في زمن القيصر كومول . وفي خطط الفرنساوية ان إحراق السيرابيوم كان بأمر البطريق بتوفيل بعد توقف كثير من العلماء والاهالي ثم بنى محل السيرابيوم كنيسة سميت أركاديوم من اسم القيصر اركاديوس المتولي تخت القيصرية بعد القيصر تيودوز الاكبر وجعل فيها دار كتب جمع فيها ما أبقته النار وشيئا كثيرا من كتب النصرانية وهي التي ينسب حرقها الى عمرو بن العاص لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك اليه فان هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين في عصره من النصارى وغيرهم ولم يظهر ذلك الا في القرن الثالث عشر من الميلاد عن كتاب ينسب الى أبي الفرج بطريق حاب مع انه لم يذكرها في تاريخه العام [1] وفي النبذة السنوية لمجلس مصر (اللانبستيتو) أي

---

(١) قوله لم يذكرها في تاريخه العام لعله يريد به تاريخ مختصر الدول المطبوع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٠ م فهذا المطبوع حقيقة لم نر فيه ذكرا لمكتبة الاسكندرية مع ان شبلي أفندي النعماني قد ذكر ان الجملة انما جاءت في تاريخ مختصر الدول هذا ! وجيبون قال أنها جاءت في ترجمة تاريخه اللاتينية ولا نعلم هل كانت الترجمة اللاتينية هي ترجمة تاريخه السرياني أم تاريخه العربي المعروف بمختصر الدول فلا يخلو الامر اما أن الطابع تبرئة لأبي الفرج والصاقا لهذا الخبر بالمسلمين حذف هذه الحكاية من تاريخ مختصر الدول قبل طبعه ثم طبعه وأما أنها جاءت في تاريخه السرياني وأنه هو الذي ترجم الى اللاتينية و نقل عنه الافرنج والذي يظهر هذه الحقيقة اني ظفرت عند صديق لي من المشتغلين بالتاريخ بالنسخة السريانية الا أنها مكتوبة بالخط الكلداني الذي تصعب قراءته

المجلس العلمي من ضمن ما قيل في جلسة أغستوس سنة ١٨٧٤ ميلادية ان بولص أوروز من تلامذة ماري اجستان وماري جيروم لم يجد شيئا من الكتبخانة حين مروره بالاسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد يعني قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة . فالظاهر ان القول بان إحراق كتبخانة اسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو محض افتراء اختلقه قسوس النصارى فانه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الاسلام . والكتب القديمة الموروثة عن الاعصر الخالية قد محتها أيدى النصارى : انتهى كلام الخطط ومنه يعلم تضارب روايات القوم في حرقها وانحصار تحقيقهم في زمن وقوعه قبل الاسلام لانه كان كذلك ومن المستحيل ان يبقى في هذه المكتبة مع توالي الحرق عليها والنقل منها ما تصل اليه يد عمرو بالحرق أو ما يكون فيه فائدة يؤسف على فقدها والسلام

﴿ عود الى خبر الفتح ﴾

أتم عمرو رضي الله عنه بفتح الاسكندرية فتح مصر وتحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى الفسطاط بعد ان أقره واليا عليها فكان خير وال وأعظم قائد وأحب الولاة الى الرعية وأشدهم قياما على العدل والنظر في عمران البلاد وراحة أهلها فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عونا للمسلمين فلم يدرك المصريين في ولايته

على من لايعرفه جيداً وقد كانت صديقي بقراءة الخبر على فتح الاسكندرية فلم يجد فيه حكاية مكتبة الاسكندرية فبقى ان الذين طبعوا الكتاب هم الذين حذفوا منه الخبر .وقد جرت عادة اليسوعيين بالتصرف بالكتب التي يطبعونها فيحرفون فيها ويزيدون وينقصون

ما أدركهم في ولاية غيره من الجهد وهابه الروم وتمهدت له البلاد فأحبها وأحبه أهلها لذلك كان شأن مصر عنده عظيما وامارتها اليه محببة حتى شبه يوما امارتها بالخلافة اذ روي عن ابن لهيعة انه قال كان عمرو بن العاص يقول : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة : وكان القبط على عهد الدولة الرومانية كعبيد لاهل الدولة من الروم و بين الفريقين نفور شديد لتباين في المذاهب والاعتقاد أدى الى العداوة وهي العداوة المذهبية التي ابتلي به كل أرباب الاديان فلما فتح عمرو مصر أطلق القبط من أسر الضيم الذي عانوه على عهد الدولة الرومانية وكان أول ما بدأ به بعد ان استقرت له الامور ان كتب امانا الى البطريرك بنيامين بطريرك الاسكندرية ورده الى كرسيه بعد ان تغيب عنه ١٣ سنة منها عشر سنين على عهد استيلاء الفرس على مصر . ومنها ثلاث سنين بعد رجوع سلطة الامبراطور هرقل اليها فسر ذلك العمل البطريرك وشكره عليه كما ذكر ذلك المقريزي . وهذا من جملة السياسة النافعة التي اشتهرت عن عمرو

وقد ذكر هذا الخبر أيضا جبون في تاريخه وقال ان البطريرك بنيامين كان يثني على عمرو بن العاص و يقدر عمله قدره .

ولا جرم ان وجود البطريرك بعيدا عن كرسيه مدة ١٣ سنة ثم عوده اليه على عهد الحكومة الاسلامية يوجد في نفسه ونفس القبط ثقة كبرى بالمسلمين ونحن لانشك بانه اذا كان هناك يد لاحد بمساعدة عمرو على فتح مصر فانما هي لذلك البطريرك يدلك عليه مانقلناه عن بعض مؤرخي العرب عند الكلام على فتح الفرما من قولهم انه كان بالاسكندرية اسقف اسمه أبو ميامين كتب الى القبط يعلمهم بقرب زوال ملك الروم

ويأمرهم بتلقي عمرو حتى كان قبط الفرما اعوانا لعمرو . وانما اشتبه على العرب الاسم فاخطأوا في نقل الحكاية والذي يظهر ان الذي كتب ما كتب هو البطريرك بنيامين وانه كتب من منفاه في منف لا من الاسكندرية والقرائن كلها تدل على ان له يدا في مساعدة العرب وانهاض القبط لتعضيدهم فان جبون ذكر ان عمراً لما فتح مصر سر القبط الذين هم على مذهب اليعاقبة سرورا عظيما وأخذوا من ثم يخطبون باسم مذهبهم على المنابر مع انه قال ان أهل المذهب الملكي هو مذهب الدولة كانوا نحو عشر السكان فهذا يدل على ان هذا العشر كان مضطهداً لبقية السكان حتى ما كانوا يستطيعون الدعاء باسم مذهبهم والجهر به وان قوما هذا شأنهم مع حكومتهم لجديرون بموالاة المسلمين لاسيما مع علمهم بان الحكم الاسلامي مؤسس على اطلاق حرية الاديان وان المسلمين لا يتعرضون لأهل البلاد المفتتحة في عوائدهم ودينهم بشيء البتة

وبالجملة فقد كانت امارة عمرو على مصر من أبرك الامارات وأرغبها للقبط وغيرهم ولم تقف به همته الشماء ونفسه العالية عند الغناء بفتح مملكة الفراعنة بل طمح الى ما هو أبعد غاية وهي بلاد المغرب ليبسط جناح الاسلام على كل أفريقيا الشمالية فتقدم بجيشه سنة (٢١هـ) يخترق الصحراء حتى بلغ برقه فافتتحها وافتتح فرضتها بنغازي ثم طرابلس الغرب ولما عزم على التوجه منها الى أفريقيا (تونس) فالجزائر ثم الغرب الاقصى جاءه كتاب أمير المؤمنين عمر (رض) ينهاه فيه عن التغرير بنفسه وبالمسلمين ويأمره بالوقوف عند ذلك الحد كما مرّ الخبر عن ذلك في سيرة عمر فعاد مكرهاً بعد ان استخلف على البلاد بطل أفريقيا عقبة

ابن نافع الفهري القرشي الذي صار اليه بعد ذلك فتح المغرب

ولقد والله يحار عقل الحكيم في أقدام أولئك الفاتحين وجرأتهم على التغلغل والامعان في أقاصي الممالك بعددهم القليل وعدتهم الضعيفة حتى افتتحوا في ثلاثين سنة مالم يفتحه غيرهم فيأجيال ومهما بحث العاقل عن علة هذا التوفيق الغريب لايجده إلا حسن السيرة والسير مع الأمم المغلوبة على نهج الحق والعدل . وإن في هذا لتبصرة وذكرى للعاقلين

باب

ولايته على مصر

﴿ أثاره فيها وأخباره مع عمر وما كان من المكاتبات بينهما ﴾

قلنا ان عمرو بن العاص تحول الى الفسطاط بعد فتح الاسكندرية وسبب تحوله انه لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم ان يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها : فكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول:هل يحول بيني و بين المسلمين ماء : قال نعم ياأمير المؤمنين اذا جرى النيل : فكتب الى عمر اني لاأحب ان تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني و بينهم في شتاء ولا صيف : فتحول عمرو الى الفسطاط ولم يكن فسطاط بل كان أرضا فيها بعض جنات مما يلي بابليون الى الجهة الشمالية و بعض كنائس للنصارى : وقيل في تسميته الفسطاط ان عمراً لما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال الروم أمر بنزع فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرّخ فقال عمرو : لقد تحرم منا بمتحرم : فأمر به فأقر وأوصى به صاحب القصر . فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا :

أين ننزل ؟ قالوا الفسطاط : لفسطاط عمرو الذي كان خلفه وقيل سمي فسطاط عمرو أي مدينة عمرو : لان الفسطاط لغة هو المدينة ولعله هو الصواب

لما تحول عمرو الى الفسطاط ورأى تنافس القبائل على المواضع أمر بتخطيط مدينة هي مدينة الفسطاط التي هي من آثاره العظيمة في هذا القطر لانه اختط عاصمة جديدة لمصر على ضفة النيل الشرقية تقابل منف[1] على الضفة الغربية فأصبحت حاضرة البلاد المصرية ولم تزل كذلك بعد بناء القاهرة الى الآن . ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولّى على الخطط (وهي الحارات) معاوية بن خُدَيج التجيبي ، وشريك بن سمي الغطيفي ، وعمرو بن قحزم الخولاني ، وحيويل بن ناشرة المغافري ، فاختطوا لكل قبيلة خطة . واختطوا مكان الجامع المعروف الى الآن بجامع عمرو اذ كتب عمر الى عمرو بن العاص بذلك كما كتب لكل الامراء يأمرهم ان يبنوا في كل مدينة مسجدا جامعاً ولا يتخذ القبائل كل قبيلة مسجداً

وجعلوا ذرع المسجد خمسين ذراعاً في عرض خمسين وجعلوا سقفه مطأطأً جدا واتخذ عمرو فيه منبرا من أعواد فكتب اليه عمر يعزم عليه في كسره ويقول . اما بحسبك ان تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ فكسره : ولم تكن الجزية تقام في زمن عمرو بن العاص بشيء من أرض مصر إلا بهذا الجامع

ثم ان المسجد ضاق بالمصلين بعدُ في ولاية مسلمة بن مخلد فاستأذن معاوية في الزيادة فيه فأذن له بذلك فزاد به وطلاه بالنورة وزخرف سقفه .

---

(١) لا تقابلها تماما بل منف كانت الى جهة الجنوب عن سمت الفسطاط جهة دهشور وسقارة الآن

وأمر معاوية ببناء الصوامع (المنائر) للأذان فبنى مسلمة فيه أربع صوامع وفرشه بالحصر وكان مفروشاً بالحصباء : ثم هدمه عبد العزيز بن مروان في سنة تسع وسبعين من الهجرة وهو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التي كانت بحريه ولم يجد في شرقيه موضعا يوسعه ثم هدم في زمان قرة بك شريك في خلافة الوليد وزيد فيه وغير وبدل وهكذا كان يتعاوره الخلفاء والامراء بالاصلاح حتى اختطت القاهرة وكثرت الجوامع والمساجد وقل سا كنوا الفسطاط فترك الجامع وهو لم يزل الى الآن متروكا ويحتفل بالصلاة فيه آخر جمعة من رمضان لكنه في حالة لا ترضى أبداً . ولو كان المصريون ممن يعنيهم حفظ آثار الرجال لجعلوا هذا الجامع من أحسن جوامع مصر أحياء لذكر صاحبه وتخليداً لذكر الفتح

واما تقسيم الخطط وترتيبها بالفسطاط لما خطط في زمن عمرو فالكلام عليه يطول وهو مبسوط في كتاب الخطط للمقريزي فليراجعه من أحب

ومن آثاره المشكورة في مصر حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين وعرف بعدُ بخليج القاهرة الذي كان يمتد من الفسطاط الى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الاحمر والهند. والخليج قديم جدا قبل الاسلام الا انه طم وتعطل قبل الفتح فحفره عمرو بن العاص وكان سبب حفره على مانقل المقريزي عن ابن الحكم بروايته عن الليث بن سعد قال: ان الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة . فكتب الى عمرو ابن العاص وهو بمصر .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العاصي ابن العاصي : سلام أما بعد فلعمري ياعمرو ما تبالى اذا شبعت أنت ومن معك من اهلك أن أهلك أنا ومن معي فياغوثاه ثم ياغوثاه :

(فكتب اليه عمرو) من عبد الله عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين. أما بعد . يالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

فبعث اليه بعير (قافلة) عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا . فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع الى كل أهل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص يقسمونها على الناس فدفعوا الى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ويأتدموا بلحمه ويحتذوا بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره فوسع الله بذلك على الناس فلما رأى ذلك عمر رضي الله عنه حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه . فقال عمر ياعمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين ان أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة فان حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ به ما نريد: فانطلق أنت وأصحابك فتشاروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم : فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر. فثقل ذلك عليهم وقالوا نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر فنرى ان تعظّم

ذلك على أمير المؤمنين وتقول له ان هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد اليه سبيلا : فرجع عمرو بذلك الى عمر فضحك عمر رضي الله عنه حين رآه وقال: والذي نفسي بيده (كأني أنظر اليك يا عمرو والى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر فنرى ان تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له ان هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد له سبيلاً : فعجب عمرو من قول عمر وقال : صدقت والله يا أمير المؤمنين لقد كان الامر على ماذكرت: فقال عمر (رض) انطلق بعزيمة مني حتى تجد في ذلك ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه ان شاء الله تعالى : فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ثم احتفر الخليج في حاشية الفسطاط الذي يقال له خليج أمير المؤمنين فساقه من النيل الى القلزم (السويس) فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام الى المدينة ومكة فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمي خليج أمير المؤمنين : ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع فصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم : انتهت رواية بن عبد الحكم

وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقي منه لهذا العهد فأمرت بطمه من بضع سنين وأصبح الجزء الذي يخترق القاهرة شارعا مد عليه خط الترامواي ودعي بخط الخليج

وجاء في سبب حفر هـذا الخليج روايات أخرى منها ماذكره أبو الفداء ان عمرو بن العاص أشار على عمر بفتح خليج البرزخ وهو الذي يصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فأبى عليه عمر فتحه خوفا

من وصول الروم الى البحر الاحمر ويقال ان خليج البرزخ هذا كان موجودا في عهد البطالسة وأن أثره كان باقيا لعهد عمرو بن العاص لهذ أشار على عمر بفتحه فكان رأي عمر ان لايفتح ونعم ذلك الرأي فان فتح خليج السويس كان من أشد الآفات على ممالك الشرق وفي الخطط التوفيقية كلام مشبع عن هذا الخليج والخليج الذى يقال انه كان من قبل فليرجع اليه من أحب

وقد كان عند المصريين عادة قديمة وهي انهم كانوا يحتفلون بزيادة النيل احتفالا عظيما يسمى جبر البحر ويسمى الآن فتح الخليج وكانوا يعملون هذا الاحتفال عند وفاء النيل فكانت من عوائدهم القبيحة فيه ان يلقوا فيه كل سنة بنتاً من الابكار بعد ان يزينوها بالحلي والحلل زعما منهم انه لايفي لهم الا بهذه الضحية : ويقال ان الامبراطور قسطنطين أبطل هذه العادة في عصره لكن المصريين عادوا اليها بدليل ان مؤرخي العرب ذكروا انها كانت موجودة لحين دخول عمرو بن العاص الى مصر فأبطلها هذا بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وتحرير الخبر على ما نقله المقريزى عن ابن عبد الحكم ان عمراً لما فتح مصر أتى أهلها اليه حين دخل بؤنة من أشهر القبط فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة لايجرى الا بها فقال لهم وما ذلك : قالوا انه اذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل : فقال لهم عمرو ان هذا لايكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله :

فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وتوت وهو لايجرى قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمر بن الخطاب بذلك :

فكتب اليه عمر ان قد أصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها في النيل اذا أتاك كتابي

فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقة فاذا فيها (من عبد الله أمير المؤمنين الى نيل مصر : أما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار ان يجريك :) فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لانه لايقوم بمصلحتهم فيها الآ النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا وقطع السنة السيئة عن مصر : (*)

وكان القبط يزعمون ان النيل لايزيد إلا اذا احتفلوا له بعيد يسمونه عيد الشهيد ولهم تابوت يضعون فيه أصابعا من أصابع اسلافهم الموتى في اليوم الثامن من شهر بشنس أحد الشهور القبطية فيلقونه في النيل فأبطل ذلك العيد الامير بيبرس الجاشنكير لما كان يقع فيه من الفتن والانغماس في الفجور ذكر ذلك صاحب الخطط التوفيقية وقال أظن ان هذا العيد هو العادة التي أبطلها عمرو بن العاص: أي هذا العيد تخلف عن تلك العادة :

والذي أدركناه لهذا العهد ان البنت قد استبدل بها صورة مصنوعة من طين تلقى في البحر يوم الاحتفال بفتح الخليج تسمى عروسة النيل وهذا يدل على صعوبة اقتلاع جذور العوائد القديمة من نفوس البشر لاسيما العوائد الوثنية التي تسربت الى أرباب الاديان الالهية مع شدة نكير هذه الاديان على أهل تلك العوائد

(*) في هذا الحكاية بحث ونظر راجع تحقيقه في المجلد الثاني من مجلة المنار (ص ٥٥٠)

ومن آثاره الجليلة مدة ولايته على مصر توسيع الجباية بالعدل وقسمتها الى ثلاثة أقسام قسم لترميم الجسور وحفر الترع وما يلزم لعمران البلاد وقسم لاعطيات الجند والباقي يرسله الى الخليفة وقد كانت الجباية قبله على عهد المقوقس تبلغ عشرين مليون دينار كما رواه المقريزي فجباها اثنى عشر مليون كما تقدم الخبر عن ذلك وعن الخلاف فيه ولما رتب الجباية استشار المقوقس فيما كان يفعله وقال له : أنت وليت مصر فبكم تكون عمارتها : فقال بخصال ـ تحفر خلجانها وتسد جسورها وترعها ولا يؤخذ خراجها إلا من غلتها ولا يقبل مطل أهله ويوفى لهم بالشروط وبدر الارزاق على العمال لئلا يرتشوا وترفع عن أهله المعاون والهدايا فبذلك تعمر ويرجى خراجها : فعمل بذلك وكان يخفف الجباية في السنين التي لا يفي فيها النيل وربما كسرها وذلك للعهد الذي كتبه للمصريين ونصه كما رواه الطبري : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب : وعلى أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (كذا) وعليه ممن جنى نصرتهم فان أبى أحد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزي بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم : على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم

المؤمنين : وعلى النوبة الذين استجابوا كذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة ؛ شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا الكتاب فلان .... اه

فدخل اهل مصر في هذا الصلح جميعهم وعليه مشى عمرو بن العاص في تقسيم الجباية ومراعاة حال النيل في الزيادة والنقص وربما اضطر احيانا الى كسر الخراج فكان عمر يظن فيه الظنون ولما استبطأه مرة في الخراج كتب اليه ما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص : سلام الله عليك : أما بعد فاني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة في بر وبحر . وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم . فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر (فلة) ورجوت ان تفيق فترفع اليّ ذلك : فاذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي في نفسي : لست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرّبا كافيا صحيحا إن البراءة لنافعة. وان كنت مضيعا نطعا إن الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت ان أبتلي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع اليّ ذلك وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك إلاّ أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك

وتلفف اتخذولك كهفا . وعندي باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبدالله ان يؤخذ منك الحق وتعطاه . فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام [1]

فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني أحمد الله الذي لا إله إلا هو: أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك مذ كان الاسلام ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر . لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام . وذكرت ان النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها . وأكثرت في كتابك وأنبت وعرضت وتربت . وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فجئت لعمري بالمقطعات المقذعات . ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا . نرى غير ذلك قبيحا والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا .

---

(١) (تفسير الالفاظ اللغوية الواردة في هذا الكتاب) قوله تأتيني بمعاريض تعبأ بها . المعاريض هي التورية بالشيء عن الشيء وتعبأ بها أي تظنها مما يعبأ به أي يهتم له وهي لا شيء عندي وقوله وان كنت مضيعا نطعا . النطع المتشدق بالكلام ، وقوله ان ابتلى ذلك منك أي امتحن . وقوله توالس وتلفف بمعنى واحد . وقوله الحق أبلج أي مضيء مشرق لايخفيه التمويه وما عنه تلجلج التلجلج التردد في الكلام . وقوله برح الخفاء برح زال وانكشف

معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم، والاجتراء على كل مأثم، فأمض عملك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنيــة والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخا ، والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد غضبا لنفسي ولها انزاها واكراما. وما عملت من عمل أرى عليه فيه متعلقا . ولـكني حفظت ما لم تحفظ . ولو كنتُ من يهود يثرب مازدتَ، يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت عالما بها . وكان اللسان بها مني ذلولا . ولـكن الله عظم من حقك ما لا يجهل اه

فكتب اليه عمر رضي الله عنه

من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام اليك فاني أحمـد اليك الله الذي لا إله إلا هو : أما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليـك في ابطائك بالخراج وكتابك الي بثنيات الطرق وقد علمتَ اني لست أرضى منك إلا بالحق البيّن لما رجوت من توفير الخراج وحسن سياستك فاذا أتاك كتابي هـذا فاحمل الخراج فانما هو فيء المسلمين . وعندي ماقد تعلم قوم محصورون والسلام

فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام..... أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج ويزعم اني أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق . واني والله ما أرغب عن صالح ما تعلم وان أهل الارض استنظروني الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من ان نخرق (الخرق ضد الرفق) بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام

فقيل ان عمر رضي الله عنه كتب اليه أن ابعث اليّ رجلا قديما من القبطة . فاستخبره عمر رضي الله عنه عن مصر وخراجها قبل الاسلام . فقال ياأمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر الى العمارة وانما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد :

فعرف عمر ما قال القبطي وعلم منه جلية الامر فقبل من عمرو ما كان يعتذر به

ولا يتبادرن الى ذهن القارىء ان إلحاح عمر رضي الله عنه على عمرو بأمر الخراج يريد به اجهاد القبط أو التوصل الى الخراج كيف ما كان الحال معاذ الله ان يخطر هذا لعمر بن الخطاب في بال وانما هو استبطأ الخراج مع عدم وقوفه على حاجة البلاد وعلمه بطمع عمرو فكتب اليه ما كتب وإلا فانه رضي الله عنه كان من أشد الخلفاء حرصاً على الرعية وقياماً على العمران ومحافظة على العهود خصوصاً مع القبط الذين استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم . واليك ما كتبه عمر أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص يستوصيه بالقبط ويأمره بأن يأخذ من الخراج ما يحتاج اليه مما لا بد منه لاصلاح البلاد ويأخذ لنفسه عطاءه ويعطي الاعطيات لاربابها وما يفيض يرسله اليه وان لا يأخذ الخراج إلا من حقه وهذا نص الكتاب كما أخرجه ابن سعد عن موسى بن جبير عن شيوخ من أهل المدينة قالوا : كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص

أما بعد فاني فرضت لمن قِبَلي في الديوان (أي فرض العطاء) ولمن ورد علينا في المدينة من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه اليك والى البلدان . فانظر من فرضتُ له ونزل بك فاردد عليه العطاء وعلى ذريته ومن نزل

بك ممن لم أفرض له فافرض له على نحو مما رأيتني فرضت لاشباهه وخذ لنفسك مائتي دينار[1] . فهذه فرائض أهل بدر من المهاجرين والانصار . ولم أبلغ بهذا أحداً من نظرائك غيرك لانك من عمال المسلمين فألحقتك بأرفع ذلك وقد علمت ان مؤنا تلزمك فوفر الخراج وخذه من حقه ثم عف عنه بعد جمعه فاذا حصل اليك وجمعته أخرجت عطاء المسلمين وما يحتاج اليه مما لابد منه . ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فاحمله اليّ واعلم ان ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح[2] وما فيها للمسلمين فيء : تبدأ بمن أغنى عنهم في ثغورهم (أي المرابطين) وأجزأ

---

(١) لعل هذا الفرض الذي فرضه لعمرو هو جرايته (مرتبه) على عمله لافرض العطاء اذ ان عمر (رض) كان يجري على العمال جراية هي غير نصيبهم من العطاء فقد ذكر في سراج الملوك ان عمر أجرى على عمار في كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه لما بعثه وبعث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق وأجرى عليه في كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم) وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجربة : ومن هذا يعلم أن عماله كان لهم جرايات على هذه النسبة وهي غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه) وانما نبهنا على هـذا الامر هنا لاهميته ولانه فاتنا ذكره والتنبيه اليه في سيرة عمر رضي الله عنه .

(٢) قوله ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح يدل على أن مصر فتحت صلحا وان ما فتح عنوة أجرى بعد ذلك مجرى الصلح الذي دخل فيه كل القبط للعهد الذي أخذه لهم المقوقس وهـذا يؤيد ما جاء في كتاب العهد الذي مر معنا ذكره وان عمر وعمرو بن العاص حفظا للمقوقس العهد وأجرياه له بعد تمام الفتح

(أفضى) عنهم في أعمالهم ثم أقض ما فضل بعد ذلك على من سمى الله (أي في القرآن)

واعلم ياعمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه « واجعلنا للمتقين اماماً » يريد ان يقتدى به . وانّ معك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال « استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحما » ورحمهم ان أم اسماعيل منهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيامة » احذر ياعمرو ان يكون رسول الله (ص) لك خصما فانه من خاصمه خصمه . والله ياعمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة وآنست من نفسي ضعفا وانتشرت رعيتي ورق عظمي فاسأل الله ان يقبضني اليه غير مفرط . والله اني لاخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعا ان أسأل عنه اه

لو لم يكن لعمر إلا هذا الكتاب لكفاه فضيلة في نفسه وفضلا على رعيته فكيف وكل أعماله شاهدة على تفرده بالعدل وحسن السيرة في الرعية ومضاء الفكر في السياسة وشدة الاخذ على أيدي العمال واليقظة في الامور جليلها وحقيرها فرضي الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء

﴿ كلمة ثانية في أهل الذمة ﴾

هذا الكتاب يمثل لنا سيرة عمر بن الخطاب مع أهل الذمة ويبين شدته على العمال في منعهم عن ايذاء أهل الكتاب اقتداء برسول الله

صلى الله عليه وسلم وعملا بأمره ومن تكون هذه سيرته مع أهل الذمة أفيعقل ان يريد بهم اذى بقول أو فعل ؟ كلا ان العقل والبديهة يرفضان نسبة أي قول أو فعل اليه يشتم منه ولو رائحة الجفاء فضلا عن استهان الذمي أو ظلمه .

واذ علم هذا فالذى يدعو الى العجب هو غفلة نقلة الاخبار ورواتها عن مقاصد عمر (رض) التي هي مقاصد الشرع الاسلامي الذى جاء للتأليف بين القلوب وعدم استحيائهم من جمع المتناقضات من الاخبار ونقلهم الموضوعات منها بلا تمحيص لصحيحها من كاذبها وبدون تروٍّ في النافع والضار منها

كتبنا في الجزء الثاني فصلا عن أهل الذمة نقلنا فيه رواية لابن الجوزى في انّ عمر تقدم الى أحد عماله بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص[1] وأبنا ثمة وجه الضعف في هذا الخبر وعجبنا من مثل بن الجوزى كيف ينقل مثل ذلك الخبر مع انه ليس في الدرجة التي تؤلم النفس اذ لو صح لحمل على قصد سياسي أو ادارى على تعبير المتأخرين يراد به ضبط احصاء أهل الجزية من الذميين لا امتهانهم اقتداء بالدول الفاتحة قبل الاسلام كالرومان والفرس الذين ثبت انهم كانوا يضربون على الرعية الجزية كانت هذه العادة متبعة عندهم في احصاء أهل الجزية وقد زاد عجبنا اضعافا الآن اذ رأينا هذا الخبر في الخطط نقله صاحبها المقريزى عن ابن عبد الحكم بزيادة أحربها ان تكون محض افتراء على عمر بن الخطاب

(١) المراد بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص هو حمل طوق فيه علامة من الرصاص كما فى بعض التواريخ

رضي الله عنه واذ قانا بوهن الرواية الاولى في جانب العقل وهي لأحد حفاظ الحديث فما أحرانا بتكذيب الرواية الثانية . واليكها بنصها مع الزيادة التي أوردها المقريزي قال :

كان عمرو بن العاص يبعث الى عمر بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه فكانت فريضة مصر لحفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا (أي من العمال) معهم الطور والمساحي والاداة يعتقبون ذلك لايدعون ذلك صيفاً ولا شتاء . ثم كتب اليه عمر ان تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف (جمعاً كاف وهو البردعة) عرضاً ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يتشبهوا بالمسلمين

فانظر أيها العاقل الى هذا الكتاب وقابله بكتاب عمر الذي يوصى فيه عمرو بن العاص أهل الذمة هل تجد بينهما التئاماً بالوجهة ؟ أم بينهما من البون البعيد مابين الحق والباطل . وقد أوضحنا في الجزء الثاني ضعف أمثال هذه الاخبار بما فيه الكفاية وانما عدنا اليها الآن لامر ظهر لنا بعد البحث والروية : وهو ان واضعي هذه الاخبار انما ألجأهم لوضعها أمران

الامر الاول ان الشئون الادارية وأهمها دواوين الخراج كانت تناط في أكثر الاوقات بأهل الذمة بل استمرت تكتب بلغتهم أيضا الى عهد عبد الملك بن مروان فكانوا يستطيلون أحياناً على رجال الدولة وأهل المكانة وربما تحرج منهم أحياناً بعض الفقهاء فوضعوا لهم أمثال تلك الاخبار تنقيصا لهم وحطا من مكانتهم عند الخلفاء والملوك وابعاداً

لهم عن مناصب الدولة وانما ألجأهم الى نسبة هـذه الاخبار الى عمر كونه كان رضي الله عنه قدوة فيما لم يرد بخصوصه نص في الشرع وهـذا بلا ريب يعد من أولئك الوضاعين تناهياً في ضعف الرأي لا سيما اذا علموا بأحوال أهل التقى والعدل من الخلفاء ومعاملتهم الجيلة لاهل الذمة كعمر ابن عبد العزيز ومن حـذا في ذلك حذوه من الخلفاء وبالأخص الخلفاء من بني العباس الذين كان أكثرهم متفقهاً في الدين واقفاً على أخبار السلف كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وأمثالهم ممن أتى بعـدهم فـكانوا يوسدون كثيراً من شؤون الدولة الى أهل الذمة ويقربونهم منهم لاسيما الاطباء والـكتاب بلا أدنى تحرج في الدين وأي حرج في الدين يمنع من محاسنة الذميين وعدم ايذائهم بمثل ذلك الامتهان المشين من كلام الوضاعين ومن وقف على أخبار ماسويه وحنين بن اسـحق وأضرابهما مع المأمون والمتوكل يعلم هـذا . وكذلك كان حالهم مع خلفاء الفاطميين في مصر فـكان القبط أرباب الـكلمة العليا عنـد الخلفاء وكانوا كما نقل المقريزى يتولون دواوين الخراج ويركبون البغال الفارهـة ويتصرفون بأموال الدولة بل بلغ بالخلفاء ان كانوا يعطون ألقاب التشريف الخاصة بالعلماء والملوك وهي الالقاب المضافة الى الدين للاطباء والـكتبة من النصارى واليهود وما نذكره من هؤلاء (الشيخ موفق الدين ابن البوري الكاتب النصراني) والحـكيم (موفق الدين بن المطران) وغيرهما ممن لم تحضرني أسماؤهم الآن :

هذا هو السبب الاول وأما السبب الثاني لوضع تلك الاخبار فنشأوه نزوع بعض الامراء الى اجهاد الرعية من مسلمين وذميين بالضرائب ونكث

عهود هؤلاء القديمة ولما لم يروا في الشريعة مخرجا لهم يتوصلون به الى الاستبداد بالرعية وتحميل الذمي فوق ماحدده الشرع من الخراج والجزية كما حملوا المسلم لاسيما والاخبار النبوية آمرة بالوفاء معهم بالعهد والمحافظة على مالهم من حقوق الذمة والجوار وأنهم أهل ذمة الله وذمة رسوله — مهدوا لاغراضهم السبيل بالايعاز الى بعض مقربيهم بوضع مثل ذلك الخبر مقدمة لاستباحة امتهانهم ثم إجهادهم بالضرائب يدلك عليه ماحدث في عهد المروانيين من الاجتراء على استزادة الخراج والجزية في مصر وغيرها من غير حقها كما ستراه مبسوطاً في محله ان شاء الله

على أن سيرة الصحابة ورجال الفتح في الصدر الاول مع أهل الذمة وحدها كافية لدحض أمثال تلك الاقوال الواهية حتى انهم افتتحوا بحسن السيرة وجميل المجاورة والمعاملة مالايقوى عليه الحسام، ويخرج عن طوق عددهم القليل بالنسبة لبقية الاقوام[1] وحسبك من أدبهم مع أهل الذمة

(١) قد كان المسلمون كلهم كعمر من حيث العمل بمراعاة أهل الذمة ولزوم تجنب ايذائهم بالقول أو بالفعل خصوصا عماله يدلك عليه ماذكره في سراج الملوك في حكاية طويلة لا محل لذكره هنا وخلاصتها ان عمير بن سعد عامل عمر على حمص وفد عليه مرة فسأله عن اشياء ثم قال له عد الى عملك فقال عمير انشدك الله ان لا تردني الى عملي فاني لا أسلم منه حتى قلت لذمي : أخزاك الله : ولقد خشيت ان يخصمني له محمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول (انا حجيج المظلوم فمن حاججته حججته) ولكن ائذن لي الى أهلي : فاذن له فاتى أهله الخ الحكاية

فاذا كان مثل عمير بن سعد يستعفي من عمله لكلمة قالها لذمي وخاف ان يخصمه رسول الله عليها لانه قال « من ظلم ذميا فانا خصمه يوم القيمة » فهل يسوغ العقل ان يؤذي عمر وعماله الذميين بمثل جز النواصي والركوب على الاكف ونحو ذلك من أنواع الايذاء الذي لا شئ بالنسبة الى قول عمير للذمي : اخزاك الله :

فاللهم انا نبرأ اليك مما كتبه الوضاعون وأخذ به الفقهاء على غير روية ولا تحكيم العقل

من الكتابيين أن ما روي عنهم من أخبار الحروب مع الروم لم يستعملوا فيه لفظ الكافرين والمشركين البتة مع أنهم كانوا يعبرون عن مجوس الفرس ووثنيي العرب قبل الاسلام بالمشركين ويقولون عن أولئك: الروم: والقبط : مثلا كانهزام الروم . وقاتل القبط ونحوه . يؤيد هذا كتب التاريخ التي نقلت الينا أخبار الفتح بالرواية كالطبري وأشباهه، ولو فرض وجود شيء من تلك الالفاظ فيها فانه نزر يسير وهو من حشو النساخ وأما كتب المتأخرين أو المقلدين فان أصحابها لم يراعوا فيها ماراعاه السلف من الادب وحسن الاداء لما وقر في نفوسهم من التعصب الذي حدث في القرون الوسطى ولم يكن له أثر في النفوس في صدر الاسلام لعلم أهل ذلك الصدر ان الاسلام جاء للتأليف والوئام ، لا للتفريق بين الاقوام ، وان اختلاف الاديان لا يوجب الفرقة والخصام ، لقوله تعالى « لكم دينكم ولي دين » ولان القرآن نطق بأن أهل الكتاب أقرب مودة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى « ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انَّا نصارى . ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون » ولهذا سرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على مجوس الفرس كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني في حكاية هرقل مع الفرس وهي القصة التي جاءت في قوله تعالى « الم غلبت الروم » الآية فلتراجع في محلها

هذا ماأردنا بسطه ليكون فيه ذكرى للذاكرين وانما أطلنا الكلام في هذا الباب إظهاراً لبراءة عمر (رض) مما عزي اليه وتنبيهاً لاولى النهى من المسلمين الى أن دينهم يأمر بمحاسنة الذميين وينهى عن مخاشنة الكتابيين وان مرض التعصب الذميم انما طرأت أعراضه على الامة تدريجًا بسبما

عقب الحروب الصليبية وان من آثار ذلك التعصب القبيح ما يلاقيه المسلمون لهذا العهد من ضروب الاهانة والعسف من الدول المسيحية التي حكمت بعض الممالك الاسلامية ولم تراع في حكم المسلمين حقوق الانسانيه ولا الدين بحجة الانتقام للمسيحية . والمسيحية والاسلام بريآن الى الله من ظلم البشر بعضهم لبعض ولكن ما الحيلة والانسان مهما رقت مداركه وسمى عقله فانه لا يزال يتقاصر دون الوصول الى مرتبة العلم الكامل الذي يحمل البشر كلهم بالاضافة الى وجوب التعاون والاجتماع سواء ، وان اختلفوا في المذاهب والاهواء ، إذ كل امرئ مسؤول عن اعتقاده عند الله . وأنه سبحانه يبين آياته للناس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها . ولكن : انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور :

(عود لخبر عمرو)

لما تم لعمرو بن العاص افتتاح مصر وكتب الى أمير المؤمنين يخبره بذلك . كتب اليه كتابا يشكره فيه ويقول له أن صف لي حال مصر فكتب اليه ما نصه

وردالي كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاه يسألني عن مصر: اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر . له أوان يدرّ حلابه ، ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجانبين . فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض إلا في صغار المراكب .

وخفاف القوارب. وزوارق كأنهن المخائل، أو ورق الاصائل، فاذا تكامل في زيادته نقص على عقبه كأول مابدأ في جريته، وطمى في ردته، فعند ذلك تخرج ملة محقورة، وذمة مخفورة،[1] يحرثون بطون الارض، ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لقيهم ماسعوا من كدهم، فناله عنهم بغير جدهم، فاذا أحرق الزرع وأشرق سقاه الندا. وغذاه من تحت الثرى. فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، فاذا هي عنبرة سوداء، فاذا هي زمردة خضراء، فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء، والذي يصلح هذه البلاد ويقرّ قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها، ولا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فاذا تقرر الحال مع العمال، على هذه الاحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله يوفق الى حسن الحال،

استقر أمر عمرو بن العاص في مصر ونال من السلطان عليها ما كان يتمناه فتبسط في المعيشة وتوسع في أمور دنياه فأُنهي الى عمر بن الخطاب انه فشت لعمرو فاشية من خيل ومتاع، ونزعت نفسه الى الراحة والاستمتاع، وهيهات لمثله ان يتم له ماأراد ويتقلب على وثير النعم وخليفته يعاني شظف العيش ويقهر النفس على الرضا بالكفاف ويؤدب عياله بأدبه ويحملهم على طريقته تعففا عما بأيدى الناس، واكتفاء بأجر الصبر والتماساً لرضا الله والرعية

روى البلاذرى عن عبد الله بن المبارك قال: كان عمر بن الخطاب

(١) قوله ملة محقورة وذمة مخفورة يدلك على ما كان يلاقيه فلاحو مصر من الجور والاهانة فى دولة الروم

يكتب أموال عماله اذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم فكتب الى عمرو بن العاص « انه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر »

فكتب اليه عمرو « ان أرضنا أرض مزدرع ومتجر فنحن نصيب فضلا عن ما نحتاج اليه لنفقتنا »

فكتب اليه « اني قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك اليّ كتاب من أقلقه الاخذ بالحق . وقد سؤت بك ظنا . وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك . مالك فاطلعه طلعه واخرج اليه مايطالبك وأعفه من الغلظة عليك فانه برح الخفاء » فقاسمه ماله

لم يسع عمرو بن العاص على دهائه وعلو مكانته ، وبعده عن أمير المؤمنين ودرته ، الاّ الخضوع لما أمره به ومقاسمته بن مسلمة ماله ذلك لانه يعلم منه الجد في القول وقد قال له في كتابه « وأعفه من الغلظة عليك » فانه لو لم يقاسمه راضياً لقاسمه مكرهاً حين لاينفعه عقله ودهاؤه ولا يشفع له ماله ولا جنده . فلله ما أعظم ذلك الرجل الكبير فعلاً . وأعلاه في النفوس مكانةً وما أهيبه في القلوب وأرهبه للعمّال على ماعرف به من التواضع للرعية والرأفة بفقراء الناس

وأخرج البلاذري أيضاً عن عيسى بن يزيد قال : لما قاسم محمد ابن مسلمة عمرو بن العاص قال عمرو : انّ زماناً عاملنا فيه بن حنتمة (يعني عمر) هذه المعاملة لزمان سوء لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج : فقال محمد : مه لولا زمان بن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفيت

معتقلا عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسؤك بكؤها [1]

قال أنشدك الله ان لا تخبر عمر بقولي فان المجالس بالامانة : فقال لا أذكر شيئا مما جرى بيننا وعمر حي

هكذا كان يقهر عمر عماله كسعد وعمرو واشباههما ومن هم ؟ هم أصحاب الفتح العظيم الذين دوخوا له الممالك وكافحوا جنود فارس والروم . وانما كان يريد بهذه المعاملة ترويض نفوسهم على الطاعة وترك الادلال بالفتح والتعجرف على الرعية أو على من دونهم من الناس بما لهم من السابقة والفضل في فتوح الممالك والبلدان

فأين هذه السياسة الجليلة ممن صاروا بعده يحكمون العمال بنفوس الامة لكلمة سوء يتقرب بها وأحدهم اليهم أو بدعة شر يعرضها عليهم لا لفتح الممالك والبلدان ، ولا لمكافحة جيوش فارس والرومان ! وانما تأذن الله بزوال أكثر دول الاسلام لحيدهم عن طريق الشرع في سياسة الرعية واطلاقهم يد العمال في معاملة الامة بالعنف والتعسف بالحكم جرياً لمنافعهم الذاتية ، وتهاوناً بأمور الرعية ، « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »

هـذا وما زال عمرو بن العاص أميرا على مصر حتى ولي الخلافة عثمان رضي الله عنه فعزله وولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكانت ولاية عمرو على مصر نحو خمس سنين ثم وليها في زمن معاوية ولم تطل مدة ولايته الثانية وتوفي فيها كما سنذكر ذلك بعدُ

---

(١) أي رابطا بساحة بيتك عنزة يسرك كثرة درها ويسؤك قلته يقال بكأت الناقة والشاة اذا قل لبنها

هـذا ما أحببنا ايراده من الخبر عن فتح مصر وولاية عمرو رضي الله عنه عليها وبقي لنا كلام عن الحالة الاجتماعية في مصر رأينا من الصواب ان نرجئه الى سيرة محمد على باشا آخر من حكموا مصر من المشاهير ليكون الكلام مبتدئا من زمن عمرو ومنتهيا الى هـذا العصر فيصير كالسلسلة المتصلة الحلقات آخذاً بعضه برقاب بعض في كل ما يتعلق بشؤون مصر العمرانية والسياسية والله الموفق والمعين .

باب

دهاؤه وأخباره مع عثمان ومعاوية

وكالة في الفتنة

(أخباره مع عثمان)

قبل الكلام على دخول عمرو في فتنة علي ومعاوية رأينا ان لا نغفل ما نقلوه عن دخوله في فتنة عثمان بيانا للحق واستيفاء لاخباره ما كان له منها وما عليه

نقم المسلمون من عثمان رضي الله عنه أشياء ليس هذا محل بسط الكلام عليها وكان أهمها إيثاره ذوي قرابته على غيرهم من جلة الصحابة في توليتهم على الاطراف وتسليمهم ازمة الدولة بعد تتبع أمراء الاعمال الأول بالعزل وابعادهم عن مناصب الدولة وكان من جملة من عزلهم عثمان عن الامارة عمرو بن العاص فنقم منه مع من نقم ولو انصف عمرو وكل من نقم من عثمان وانكر عليه تأمير ذوي قرباه ونظروا الى الظروف التي صار اليها في خلافته والاحوال التي اكتنفته في ولايته وما أحرجه به

مناظروه لما نقموا منه عمله ذلك لانه أراد به تثبيت دعائم خلافته بمن يأمن بهم غائلة النزوع الى الفتنة والتوثب على الخلافة تحزباً مع زيد أو انتصاراً لبكر كما سنبسط ذلك فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

عزل عمرو بن العاص عن امارة مصر فجاء الى المدينة فكان عثمان رضي الله عنه يميل الى استشارته في أموره ويضعه موضع الثقة منه حتى انه لما اشتدت عليه الازمة دعاه فيمن دعاهم اليه من ذوي قرابته وعماله واستشارهم فيما يصنع لاطفاء نار الفتنة فكان مما قاله له عمرو بن العاص كما في رواية أبي جعفر الطبري

يا أمير المؤمنين انك قد ركبت الناس ببني أمية فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدل ، أو اعتزل ، فإن أبيت فاعزم عزما ، وأمض قدما ،

فقال له عثمان : مالك قمل فروك أهذا تجد منك : فسكت عمرو حتى تفرقوا ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لانت أكرم عليّ من ذلك ولكني علمت أنّ بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منّا فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود اليك خيرا وأدفع عنك شرّا

وفي رواية للطبري أيضاً قال : كان عمرو بن العاص ممن يحرّض على عثمان ويغري به ولقد خطب عثمان يوماً في آخر خلافته فصاح به عمرو ابن العاص : اتق الله ياعثمان فانك قد ركبت أموراوركبناها معك فتب الى الله نتب

فناداه عثمان : وانك ههنا يابن النابغة قملت والله جبتك منذ نزعتك عن العمل

وفي رواية له أيضاً قال : كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان وكان يقول : والله ان كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان فضلا عن الرؤساء والوجوه . فلما سعر الشر بالمدينة خرج الى منزله بفلسطين فبينما هو بقصر ومعه ابناه عبد الله ومحمد وعندهم سلامة ابن روح الخزامي إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان فقال محصور : فقال عمرو : أنا أبو عبدالله *العير يضرط والمكواة في النار* : ثم مر بهم راكب آخر فسألوه فقال : قتل عثمان . فقال عمرو : أنا أبو عبد الله اذا نكأت قرحة أدميتها . فقال سلامة بن روح : يا معشر قريش انما كان بينكم و بين العرب باب فكسرتموه : فقال نعم أردنا أن نخرج الحق من حاصرة الباطل ليكون الناس في الامر شرعا سواء

هذا كل ماقيل في شأن دخول عمرو في فتنة عثمان وهذا الخبر الاخير مع مافيه من الضعف بالنسبة لما تضمنه الخبر الاول وانه يحتاج الى تمحيص فلو صح لدل دلالة صريحة على ان كل مانقم من عثمان (رض) انما هو ايثاره بني أمية على غيرهم في الاعمال . وقد زعم بعضهم ان عمرو ابن العاص هو الذى حرك المصريين على عثمان ولا دليل عليه إذ الذي حرك المصريين في الحقيقة هو محمد بن أبي حذيفة وابن السوداء اليهودي كما سيأتي في محله وما كان لعمرو في هذه الفتنة إلا ما كان لكل الصحابة الذين حضروا قتله وأحسن مايعتذر به عن عمرو هو انه دخل فيما دخل فيه معظم القوم كما كان ذلك في فتنة عليّ ومعاوية يدلك عليه مانقله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة من رواية الواقدي عن شعبة بن الحجاج عن سعد بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن عوف قال . قلت له (أي لسعد) كيف

لم يمنع أصحاب رسول الله (ص) عن عثمان؟فقال انما قتله أصحاب رسول الله ويريد بهذا أنهم شهدوا قتله ولم يكونوا لقيام من قام عليه كارهين وأما أنهم أرادوا قتله فمعاذ الله وانما هم نقموا منه ما نقم الناس وظنوا أن عثمان اذا اشتد عليه الامر وضايقه المحاصرون له يخلع نفسه من الخلافة فتعود شورى بين الناس وهذا غاية ما كان يطمح اليه المهاجرون الذين هم من أهل الشورى والذين كان لكل منهم حزب يريده على الخلافة ويرى أنه أحق بها من عثمان ولكن أعجلهم أهل الفتنة وطرار الآفاق الذين حاصروا عثمان وبادروا الى قتله لما علموا أنهم ان عادوا الى ديارهم مع بقاء الخليفة عثمان حيًا أُخذوا لامحالة وهذا بحث طويل لامحل له هنا بل سنعود اليه ونتبسط فيه من كل وجوهه في سيرة عثمان ان شاء الله

أخباره مع معاوية

(وكلمة في الفتنة)

ذكرنا في سيرة سعد بن أبي وقاص في التمهيد الذي مهدناه لاخبار الفتنة انّ هذه الفتنة سياسية لادينية وأن سعداً اعتزلها حبا بالسلامة وقد جاراه على ذلك جماعة من الصحابة كابن عمر ومحمد بن مسلمة والمغيرة بن شعبة وعبادة بن الصامت ونفر غيرهم . واعلم ان اعتزال هؤلاء وطلبهم للسلامة انما كان لعدم تحققهم المحق من غيره من فريقي المتخاصمين اذ القوم كلهم مسلمون وفي الفريقين من كبار الصحابة والمهاجرين وجلة الانصار من لم يشك في دينهم أو يقدح في عدالتهم والحكم على فريق منهم أنه على غير الحق حكم على الآخر إذ الكل متساوون في الاسلام

متكافئون بالصحبة وان امتاز بعضهم عن بعض بالسابقة أو قدم الهجرة وكل ما زعمه بعض الفرق الاسلامية كالمعتزلة والشيعة من أن الفريق الذي حارب عليًا رضي الله عنه من الهالكين على رأي الفرقة الأولى ومن الكافرين على رأي الفرقة الثانية مجازفة وافتئات على الدين وتكفير لكل المسلمين يومئذ لانهم كلهم دخلوا في الفتنة فاذا صح كما يزعمون ان الفتنة لها مساس بالدين شمل زعم أولئك الفرق كل المسلمين وهم أبرأ الى الله مما يزعمون

والعجيب في أولئك الفرق أن يتنازع أشخاص من الصحابة على رئاسة دنيوية بل ولو دينية أيضاً يرى كل شخص منهم أنه الاحرى بها والاليق للقيام بأعبائها فيجعلون ذلك التنازع تنازعاً دينياً كأنه تنازع على ان الله واحد أو أكثر يجو من آمن بوحدانيته ويهلك من قال بتعدده فيرسخ في أذهانهم تكفير نصف المسلمين يومئذ مع أن في الحديث (من قال لاخيه يا كافر فقد باء بالكفر) فما بالك بمن يكفر نصف المسلمين لا لأنهم أشركوا بالله أو نبذوا الدين بل لانهم نصروا طالب رئاسة على آخر يطلبها مثله وكلٌ يرى صاحبه أولى بها لمزايا عرفت فيه ليست في الآخر

نعم ان لتلك الفرق أن يقولوا أن عليًا رضي الله عنه حقيق بأمرة المؤمنين لسابقته وقرابته وورعه وتقواه ولما شاءوا من الاوصاف الفاضلة التي هو بها جدير رضي الله عنه وأرضاه ولكن ليس لهم أن يقولوا ان من نازعوه على الخلافة وأنصارهم كفار . لم ذا ؟ لانهم نازعوه عليها . مع أنه ليس هناك أمر إلهي بتخصيص الخلافة في شخص بعينه بل ولا أمر نبوي أيضاً وكل ما قيل وروي عن النبي (ص) في شأن علي وآله نصاً

ووصاية كما يقولون فقد ثبت انه موضوع وان حاول مؤسسوا مذهب الشيعة ورفعوا دعامته اثباته بوجوه كلها مردودة وحسبك شاهداً على ذلك انّ الصحابة لما ناقشوا الانصار يوم السقيفة لم يحتجوا عليهم إلا بحديث (الأئمة من قريش) ولما ناقش عليّ أبا بكر وعمر لم يحتج عليهما بالوصاية بل بالسابقة والقرابة ثم أجمعوا جميعهم وعليّ معهم على الرضى بخلافة أبي بكر ولو كان هناك نص على عليّ لعلم لديهم جميعهم يومئذ ولم يعدلوا بعليٍّ أحداً إلا اذا اعتقد الشيعة بوجود النص وان الصحابة كلهم كتموه وخالفوا أمر النبي (ص) لانهم غير مؤمنين الاّ عليّ بن أبي طالب فانه كان وحده كل المسلمين . وما نخال ان الجهل يبلغ بأحد الى مثل هذا الاعتقاد لذا لم يعتقد مثله إلا طائفة حقيرة منهم ظهرت في المغرب تنسب الى الطائفة النحلية قد بلغ أفرادها الغاية من خسة الطينة والبعد عن تحكيم العقل ومحاسبة الوجدان فالتحقوا بسائمة البشر الذين قالوا بنبوّة علي وألوهيته وغير ذلك من الهذيان

وبالجملة فمن الفضول في أمر مضى زمنه ، وخلاف انقضى أمره بين المختلفين فيه في عصرهم ، ان ينقسم الناس لأجله شيعا الى هذا اليوم . وانما كان يصلح تشيع كل فريق لصاحبه حين مطالبته بالخلافة تعضيدا له وأخذاً بناصره وتوصلا لامرته . وأما التشيع لفريق دون فريق الى هذا اليوم فأي فائدة فيه للمتشيع له غير ما يقوله الامامية من وجوب الخلافة لآل عليّ للنص أو العصمة وهم غير مغنيهم عن هذا الوجوب شيئاً إلا ما كان في بعض العصور الاسلامية من قيام الدعاة لآل عليّ يتذرعون بذلك

للسيادة والملك أو الالتفاف حول صاحب الدولة(١) وناهيك بما نشأ عن هذه

---

(١) هذا القول يحتاج كما لا يخفى الى دليل لهذا عزمنا على أن نفرد له فصلا مخصوصا في سيرة عليّ رضي الله عنه نأتي به على ملخص تاريخ أكثر زعماء الشيعة والقائمين بهذه الدعوة طلبا للدنيا أو للاستئثار بالرياسة دون صاحب الدعوة وانما قلنا الزعماء لان العبرة فى تاريخ تلك النحل الامامية للرؤساء القائمين بها لا لعامة أهلها اذ هؤلاء أتباع الرؤساء وأسرى التقليد فى كل نحلة يدينون بما دان به أباؤهم كيف ما كان . على ان كلامنا فى هذا الفصل جميعه اجمالي أتى معنا استطراداً والتفصيل لغير هذا المقام فلا تظنن ان ما كتبناه هنا عام يشمل سائر معتقدات الشيعة كلا فان من هؤلاء أقواما على جانب من الاعتدال فى مذاهبهم ومنهم زيدية اليمن وأكثر المعتزلة ومن جاراهم فى القول بجواز امامة المفضول مع وجود الفاضل وبناء مذهب الامامة على أساس معقول لا يدعو الى كل هذا التباين بين الشيعة وأهل السنة ولا يوجب وجود البغضاء بين المسلمين على اني أعتقد ان أكثر عقلاء الشيعة والمستنيرين بنور العلم والحكمة ولاسيما خاصة أمة الفرس منهم ينكرون على الغلاة أشد الانكار ويتأففون من ذلك الخلط والخبط الذي مزق أحشاء الاسلام وكل من شممت منه رائحة الاعتدال من عقلائهم وفاتحته بحال المسلمين وما آل اليه أمرهم من جراء هذه المذاهب الداعية الى الفرقة والشقاق الباعثة على تهكم الغير لم ينكر عليّ هذا القول بل أظهر من الالم من سوء هذا التعصب الاعمى والجهل مثلما أحسّ به أنا وكل من عنده شعور ولو قليلا بخطر مصير صار اليه المسلمون بازاء الأمم الاخرى لتضييعهم أيام مجدهم وابان شباب دولتهم بمثل هذه السفاسف التي ليست على شيء من الدين والحق حتى شغلتهم هذه الامور عن كل شاغل فاسترسلوا فى تيه الغفلة عما يكون من مجد الامم وسعادتها ولم ينتبهوا من هذه الغفلة حتى أخذتهم صيحة المغرب من كل مكان وساقت عليهم جيوش العلم والاختراع وسدت دونهم منافذ النجاة من خطر الاستعباد لامم المغرب الراقية التي عرف أفرادها قيمة العقل فاستخدموه فيما ينفع الانسان ويبسط لهم جناح السلطان فاللهم ألف بين قلوبنا والهمنا الرشد الى طريق سعادتنا واهدنا لتوحيد كلمتنا والعمل بما فيه صون جامعتنا من شوائب الجهل ومصائب الخرافات والاوهام وحسبنا من جزائك العادل أن صرنا وراء الامم ، وأشرفنا على هوة العدم ، والعياذ بالله

الدعوة من تفريق المسلمين وسفك دماء الناس وما كان فوق هـذا من غلو فريق كبير في آل عليّ حتى جعلوه وآله آلهة تعبد من دون الله كالخرمية والبنانية والاسماعيلية أو الباطنية وغيرهم من الفرق الكثيرة التي بلغ ببعضها الجهل والتناهي في ضعف العقول ان قالوا انّ رؤية الامام وحدها كافية لاسقاط الفرائض واستباحوا بهذا الاعتقاد كل محرم كما سيأتي الخبر عن هذا فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

كل هذه الوثنية والابتداع والبلاء العظيم نشأ عن التشيع ومذهب القائلين بامامة آل عليّ . وعن ماذا نشأ ذا ؟ عن منازعة أشخاص على امارة المؤمنين أو رئاسة الدولة قد لاقوا ربهم ومضى زمنهم وانتهى أمر خلافهم ولم ينته بين المسلمين سوء الفهم والتشيع والانقسام الى هذا اليوم حتى صاروا هذا بسنيته وذلك بتشيعه والآخر بطريقته كالسمك بعضهم عدوّ بعض يسطو قويهم على الضعيف وربما اغتفر لهم ذلك الخصام والانقسام بالنسبة لغابر الزمان ولكن ما رأي الأمة الآن وقد فغر حوت المغرب فاه ليلتهم القوي والضعيف ويأتي على الآكل والمأكول ما دام الكل في الفرقة والخصام مسترسلين يحملون معاول الخلاف لهدم بنيان مجدهم ووحدتهم باسم الدين والدين بريء مما يعملون

اذا تقرر هذا فقد علمت انه نتج مما تقدم أمور ينبغي النظر فيها وهي :

(١) ان مسئلة الخلاف على الخلافة في ذلك العصر مسئلة سياسية باعتبار ان الخلافة رئاسة دنيوية (كما قدمنا في صدر الجزء الاول) واجبة عقلا لرعاية مصالح البشر الدنيوية

(٢) ان الذي دعا فرق الشيعة الى إلصاقها بالدين وجعلها واجبة دينا

باعتبار انها ركن من أركان الدين انما هي السياسة نفسها وهي ارادة تفويض هذه الرئاسة لشخص يرون ان لهم عليه حق النصرة ويقولون انه أهل لادارة مصالح الأمة على محور الشرع أكثر من غيره ولكن لما علموا ان الاهلية لا تنحصر في الحقيقة في شخص بعينه قالوا بالنص والتخصيص أي ان صاحب الشرع نص على علي ثم جرّهم ضرورة سوق الامامة الى أولاده الى اعتقاد العصمة في عليّ وآله تدعيما لدعوامم الباطلة ثم لم يكتف غلاتهم بذلك بل انزلوهم منزلة النبوّة تارة والالوهية أخرى وهو رضي الله عنه براء مما يقول الظالمون

(٣) ان كل فريق من الفرق المتحاربة أيام الفتنة معذور باعتبار ان النفر الذين تطلعوا الى الخلافة وانقسم لاجلهم المسلمون انما تنازعوا على أمر ما زال يتنازع عليه الاكفاء من أهل العصبية في كل دولة من الدول وعصر من العصور

(٤) نا كما عذرنا أولئك النفر ينبغي ان نعذر عمرو بن العاص على دخوله في الفتنة لان له أسوة يومئذ بكل المسلمين ولا يؤخذ عليه من ذلك الاّ ماصنعه يوم التحكيم وهو وان ادّى فيما صنع حق الخدمة لمن انحاز اليه وعمل بما تقضي به صفة السياسة والدهاء الموصوف بهما الا انه أوجد من الأمور أموراً أنتجت نتائج كبيرة في مستقبل الأمة . فهو اذا أوخذ فانما يؤاخذ من هذه الجهة لامن جهة انه كفر وألحد باعانته على عليّ (رض) كما يتخرص به أولئك المتخرصون . إذ ما كان ليضر عليًّا ممالأة عمرو عليه لو أحسن شيعته الطاعة له في حرب معاوية (رض) ويوم اختيار الحكم ولكن لله في هذا شأنا هو بالغه

عمرو بن العاص كان من شيوخ قريش ورجالهم في الجاهلية والاسلام وكان له مكانة كبيرة عند المسلمين لخدمته الكبيرة في فتح فلسطين ومصر وطرابلس الغرب وقد رأى ما رأى من قيام المطالبين بالخلافة وتحزب كافة المسلمين لاولئك النفر من قريش فلم يسعه مع حبه للرياسة والتقدم في الامور ماوسع النفر المعتزلين من حب السلامة بل رأى أن انتفاع فريق من أولئك المختلفين برأيه ربما كان فيه تعجيل باطفاء شواظ الفتنة وحسم لمادة الاختلاف الذي أهريق فيه دم الامة. وتربص ريثما انجلت الفتنة الاولى عن قتل طلحة والزبير وانحاز الاحزاب كلهم الى علي ومعاوية رضي الله عنهما فنظر فرأى علي بن أبي طالب رجل دين وورع لا يعبأ بخدع السياسة ومعاريض الساسة ولا يصيب مصاحبه شيئاً من دنياه: وان معاوية رجل دينا لا يفوته الانتفاع بمثل عمرو بن العاص كما لا يفوت عمرا الانتفاع منه وأخذ الشهرة عليه بل ربما أضمر ان ينازعه الخلافة كما نازع هو علياً عليها اذا أظفره بمطلوبه وانفرد وإياه في الامر كما سترى بعدُ فانحاز الى معاوية وكان له من الشأن بعدُ ماهو معروف وماسنذكره هنا ان شاء الله

روى ابن عساكر في سبب ارتحال عمرو الى معاوية عن عبد الله ابن الزبير: ان الفتنة وقعت وما رجل من قريش له نباهة أعمى بها [1] من عمرو بن العاص قال وما زال معتصما بمكة ليس في شيء مما فيه الناس حتى كانت وقعة الجمل. فلما كانت وقعة الجمل بعث الى ابنيه عبد الله ومحمد فقال لهما اني رأيت رأيا ولستما باللذين تردانني ولكن أشيرا علي. اني

(١) وجاءت هذه الكلمة في كل من نسخة مكتبة دمشق ونسخة مكتبة الجامع الازهر (اعمامها) وهي غير مفهومة كما لايخفى

رأيت العرب صاروا عادين[1] يضطربان وانا طارح نفسي بين حراري مكة ولست أرضى بهذه المنزلة فقال الى أي الفريقين أعمد

فقال له عبد الله ابنه ان كنت لابد فاعلا فالى علي فقال عمرو: ثكلتك أمك اني ان أتيت عليًا قال لي أنت رجل من المسلمين. وان أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره: فأتى معاية. وروى ابن عساكر من طريق آخر قال لما بلغ عمرو بن العاص بيعة الناس عليًا دعا ابنيه عبد الله ومحمدا واستشارهما: فقال له عبد الله: صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي وهو عنك راض. وصحبت أبا بكر وعمر فتوفيا وهما عنك راضيان. ثم صحبت عثمان فقتل وهو عنك راض فأرى ان تلزم بيتك فهو أسلم لدينك:

وقال له محمد أنت شريف من أشراف العرب وناب من أنيابها لا أرى ان تختلف العرب في جسيم أمورها ولا يرى مكانك

فقال لعبد الله أما أنت فأشرت علي بما هو خير لي في آخرتي وأما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنبه لذكري ارتحلا: فارتحل الى معاوية

وفي رواية ان عليًا رضي الله عنه كتب الى معاوية كتابا بعث به مع جرير بن عبد الله البجلي يدعوه الى البيعة فطاول في الجواب ريثما استوثق من أهل الشام ثم استشار بأخيه عتبة بن أبي سفيان فأشار عليه ان استعن بعمرو بن العاص فكتب اليه مانصه:

أما بعد فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك وقد سقط الينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد الله

(١) أي فريقين كبيرين

في بيعة علي وقد حبست نفسي عليك فاقبل اذا كرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها ان شاء الله :

فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه عبد الله ومحمدا فاشار عليه الاول بالجلوس والثاني بالخروج الى معاوية فارتحل اليه

فلما قدم اليه دعاه الى جهاد عليّ ومطالبته بدم عثمان وصغر له من شأن علي رضي الله عنه فقال: والله يامعاوية ما أنت وعلي بعيرِ ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه . والله ان له مع ذلك لحظا في الحرب ليس لاحد غيره . ولكني قد تعوّدت من الله تعالى إحسانا وبلاء جيلا فما تجعل لي ان شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرور والخطر :

قال معاوية : حكمك: قال عمرو : مصر طعمة : فتلكأ معاوية وقال له : أبا عبد الله أما تعلم ان مصر مثل العراق : « يريد انّ العراق بيد علي ومصر بيد عمرو فماذا يبقى له » قال عمرو : بلى ولكنها انما تكون لي اذا كانت لك وانما كانت لك اذا غلبت عليًا على العراق :

وافترقا فلما حضر عتبة بن أبي سفيان قال لمعاوية : أما ترضى ان تشري عمراً بمصر ان هي صنعت لك : وبات تلك الليلة عند أخيه فأسمعه بالليل أبياتا يقول فيها :

أيّها المانع سيفاً لم يهز ... انّما ملتَ على خزٍّ وقزّ

الى ان قال :

واسحب الذيلَ وبادر فوقها ... وانتهزها ان عمرا ينتهز

أعطهِ مصرا وزده مثلها ... انما مصر لمن عزّ فبز

واترك الحرص عليها ضلة واشبب النار لمقرورٍ يكز[1]
ان مصرا لعليّ أو لنا يُغْلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع قوله أرسل الى عمرو فأعطاه مصر على ان يعطي عطاءهم وأرزاقهم وما بقي فله . فرجع عمرو الى عبد الله ابنه فقال : يا الله قد أخذنا مصر : فقال وما مصر في سلطان العرب . فقال له : لا أشبع الله بطنك ان لم تشبعك مصر :

وكتب معاوية بمصر كتابا لعمرو أراد ان يكايده حتى اذا أراد الرجوع عن عهده رجع فكتب اليه فيما كتب « على ان لاينقص ـ أي عمرو ـ شرط طاعة » فأدركها عمرو وكتب « على ان لا تنقض طاعة شرطا » وهو قلب في العبارة بلغ الغاية في اللطف وقلب المقصود الذي قصده معاوية الى مايقصده عمرو من ان الطاعة لاتوجب التخلي عن مصر

على ان معاوية لما استقر له الامر حاول الرجوع على عمرو بمصر ثم أصلح بينهما معاوية بن خُدَيج[2]

روى ابن عساكر عن أبي عون قال : لما صار الامر كله في يدي معاوية استكثر مصر طعمة لعمرو ماعاش ورأى عمرو ان الامر كله قد صلح به وبتدبيره وعنايته وسعيه فيه وظن ان معاوية سيزيده الشام مع مصر : فلم يفعل معاوية . فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس وظنوا انه لايجتمع أمرهما . وكتب بينهما كتابا وشرط فيه شروطا لمعاوية وعمرو

(١) قوله وأشبب النار أي أشعلها . وقوله لمقرور يكز المقرور الذي أصابه البرد ويكز بمعنى ينقبض (٢) ضبطه بن الاثير فى التاريخ بن حديج بالحاء المهملة وجاء فى أسد الغابة له أيضا بالخاء المعجمة وفى أكثر كتب الاخبار كذلك

خاصة وللناس عامة وانّ لعمرو ولاية مصر سبع سـنين ، وعلى أنّ على عمرو السمع والطاعة لمعاوية . وتواثقا وتعاهدا على ذلك وأشـهد عليهما به شهودا ثم مضى عمرو بن العاص الى مصر واليا عليها وذلك في آخر سـنة تسع وثلاثين فوالله ما مكث سنتين أو ثلاثا حتى مات :

ولا يتبادر الى ذهن القارئ من قوله في هـذه الرواية « لما صار الامر كله في يدي معاوية الخ » ان مصر انتهت الى معاوية بعد استصفاء معاوية للخلافة وموت علي والحسن رضي الله عنهما كلا بل أخـذ عمرو مصر من محمد بن أبي بكر لما كان واليا على مصر من قبل علي رضي الله عنه كما سترى بعد

هذا وكان جرير بن عبد الله البجلي ينتظر جواب معـاوية لعلي فاستشار معاوية عمرا فيما يصنع فقال ان رد ربيعة على عليٍّ خطر شديد ورأس أهل الشام شُرَحبيل بن السمط الكندي وهو عدوّ لجرير المرسل اليك فابعث اليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس ان عليًّا قتل عثمان . وليكونوا أهل رضى عند شرحبيل . فانها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب وان تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبدا

ففعل معاوية ما أشار به عمرو كما سنذكره في محله ان شاء الله فاغرى شرحبيل بحرب عليٍّ وتم لمعاوية ما أراد من جمع أهـل الشام على حربه وكان بعد ذلك ما كان من حرب صفين وغيره مما سيرد في هذا الـكتاب ان شاء الله

مهد عمرو لمعاوية بدهائه ما مهد وارتحل معه الى صفين حيث كانت الحرب بين علي ومعاوية فاتى هناك بمكيدتين دلتـا على عظيم دهائه

وكبير عقله الا انها كانتا كالبركان اذا انفجر، لايبقي ولايذر، فاما المكيدة الأولى : فهي اشارته برفع المصاحف في وجوه أصحاب عليّ وذلك ان عمرا كان في آخر يوم من أيام صفين بحيال الاشتر فقال لوردان مولاه : أتدري ما مثلي ومثلك ومثل الاشتر : قال لا : قال كالاشقر ان تقدم عقر وان تأخر عقر لئن تأخرت لأضربن عنقك : قال أما والله يا أبا عبد الله لاوردنك حياض الموت ضع يدك على عاتقي : ثم جعل يتقدم ويقول لاوردنك حياض الموت واشتد القتال . فلما رأى عمرو أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا الاّ اجتماعا . ولا يزيدهم الاّ فرقة : قال نعم : قال نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها : هذا حكم بيننا وبينكم : فان أبى بعضهم ان يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغي لنا ان نقبل . فتكون فرقة بينهم . وان قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنّا الى أجل

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : هذا حكم الله بيننا وبينكم . من لثغور الشام بعد أهله « أي من يحميها من العدو » من لثغور العراق بعد أهله : فلما رآها الناس قالوا نجيب الى كتاب الله :

ومن ثم استعرت نار الفتنة بين جند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وألزموه بوضع السلاح على غير رضا منه بما صار بعد ان كادت جنوده تدحر جنود الشام

واماّ المكيدة الثانية فهي خداعه لابي موسى الاشعري يوم التحكيم حتى خدعه وقدمه على نفسه نخلع صاحبه وثبت عمرو صاحبه كما سيرد تفصيل هذه الاخبار فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله

اجتهد عمرو بنصرة صاحبه وتأييد جانبه فنجح في مكيدتيه الأولى والثانية لكن ماذا كان من وراء ذلك الأيد ؟ وماذا نشأ عن ذلك الكيد؟ انّ غاية ما كان يرجوه عمرو بن العاص من وراء المكيدة الاولى ان يقبل دعاءه قوم ويرفضه آخرون فيدب الفشل حينا في جيش عليّ بن أبي طالب (ض) يلم في غضونه جيش معاوية شعثه ويعد للكرة عدتها أو يعد عمرو للأمر حيلته ويهيئ لعمل آخر أسبابه لجاءه الأمر فوق ما أراد ووقع سهمه وراء الغرض اذ كانت كلمته أشبه بنار وقعت على بارود فالتهب ، أو أصابت جسما فاضطرب ، فنزعت من القوم نازعة كأنها كانت في عقل فتنشطت ، ونعقت ناعقة كأنها كانت في قفص فأفلتت ، فنادت الى م تعضنا هذه الحرب بنابها ، وعلام تأخذنا قريش بجريرتها ، وما لنا وللامراء من عدنان أو قحطان وأمير كلّ امرء دينه ، وحاكمه وجدانه ، هلمّ فلنخرج عن جماعة الامراء ، ولنقتلهم في ليلة ظلماء ، ونثير على الامة كلها غارة شعواء ، فاما ان تفيئ معنا الى كتاب الله وأما ان تموت شهداء

هؤلاء هم الخوارج الذين كانوا فتنة وضرا على علي وأصحابه ، ومعاوية واحزابه ، ومروان وجنده ، وعبد الملك وكيده ، والخلفاء من بعدهم . صبغوا أديم الارض بدماء المسلمين ، وكدروا صفاء الدول عددا طويلا من السنين ، ولولا غلوّ في معتقدهم ، واغراب في بوادر السنتهم ، وتطرّف في مذهبهم ، استلحموا به الناس قتلا وحربا لالتف الناس لفهم ، واخذوا جميعا اخذهم ، فاستأصلوا جذور الارستقراطية من اعماق الوجود ، وقلبوا أوضاع الدول ولكن أكلتهم الحروب ، وفرق جمعهم الخلفاء ، واضعفهم الشذوذ في

الاعتقاد ، فلم يصلوا الى مبتغاهم وضاع أثرهم [١] بعد ان ضاع تعبهم الاهم الا أثرا في النفوس تركوه ، وطريقا لحرية القول مهدوه ، فدب في الامة من ذلك اليوم دبيب الجدل لكن في الدين ، وحُبّب اليهم الانطلاق لكن عن قيود الوحدة في المشرب والفكر ، والكلام على هذا نستوفيه في غير هذا المحل ان شاء الله

هذا ما انتجته مكيدة عمرو الاولى ولو علم بمثل هذه النتيجة لما فعل (واما المكيدة الثانية) فحسبها ان حولت قواعد الخلافة الشرعية الى الملك العضوض والشورى ، الى المغالبة ، والاختيار الى الوراثة ، ولو استقرت الخلافة لابن أبي طالب رضي الله عنه بعد اذ ذهب مناظروه من اقيال قريش لما بقي للمغالبة بعده أثر لان النفر الذين كان لهم السابقة والتقدم على الناس والنزوع الى تلك الرياسة العظمى وكان الناس يساقون معهم طوعا بحكم التقدم والشرف والسابقة قضوا ولم يك يبقى بعد ذلك للناس وجهة يتوجهون اليها الا اختيار السابقين في الاهلية لرياسة الامة وكانت رسخت ليومئذ في نفوس الامة مبادي الشورى ونمت فيهم ملكة الاستعداد لوضع قواعد الحكم الديموقراطي على أساس متين فاستحال ان تدكه أيدي المتغلبين على الملك ، الطامعين في استعباد الناس ،

الملك طرفان مطلق ومقيد فتنازعهما علي ومعاوية فكان عليّ آخر

---

(١) ان الخوارج تفرقوا في مذاهبهم السياسية والدينية فرقا شتى لم يبق منهم الى هذا العهد الا فرقة واحدة تسمى الاباضية ويوجد منها ناس على شطوط البلاد العربية مما يلي المحيط الهندي وناس في زنجبار ومثلهم في بلاد تونس والجزائر تغيرت مذاهبهم بتغير الزمان وتطاوله

الامراء المقيدين ، ومعاوية أول الامراء المطلقين ، ومع ما عرف عن الثاني من الحلم وحسن السياسة وكف يد الظلم التي يبسطها عادة الرؤساء المطلقون فانّ هذا لم يغن الامة شيئا عن خلافة عليّ بن أبي طالب التي كانت أحب الى الامة وأسد سبيلا في مستقبل الايام للخلافة الشرعية وضم عقد الرعية كافة في سلك واحد تتوحد فيه مشاربهم السياسية فينقطع دابر النازعين الى الملك من غير ذوي الاهلية ، وينحسم أصل النزاع على السلطان أو التسلط على الرعية ، فيكون الناس أمة واحدة تخضع لقانون واحد وهيهات للمسلمين ذلك بعد مكيدة عمرو وهيهات والكلام على هذا طويل سنفصله فيما هو آت

قلنا فيما تقدم انّ عمرو بن العاص انما كاد ما كاد وفاءً بعهده مع معاوية لاينظر الى ما تصير اليه الامور في مستقبل السنين بل ينظر الى قضاء لبانة عرضت له والاعمال التي يترتب عليها من النتائج العظمى ما ترتب على عمل عمرو ومما لأته لمعاوية هي أمور مخبوءة في باطن الايام يتبع بعضها بعضا في الظهور وقد لا تظهر بمثل احتكاك عمرو وأو أشد منه أيضا فلا ينبغي الاغراق في مؤاخذة عمرو بن العاص مادامت تلك النتائج غير مقصودة له بالذات وانما جاءت بالعرض لا سيما وانه ربما كان يرمي الى غرض آخر من ممالأته لمعاوية وهو مصير الخلافة اليه اذا قضى عليّ ومعاوية رضي الله عنهما في تلك الحرب . يدلك عليه تغريره بمعاوية في كثير من المواضع ليطوح بنفسه الى الهلاك

ومنها تغريره له في مبارزة علي بن أبي طالب في وقعة صفين وتحرير الخبر ان عليّ بن أبي طالب (رض) نادى معاوية : علام يقتل الناس بيننا

هلمّ احا كمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الامور :

فقال له عمرو : أنصفك : قال معاوية : ما أنصفت انك لتعلم انه لم يبرز اليه أحد الا قتله : فقال له عمرو : ما يحسن بك ترك مبارزته : فقال له معاوية : طمعت بها « أي الخلافة » بعدي

ومنها اغراؤه له بقتل أسرى صفين وقد كان عند علي بن أبي طالب أسرى أطلقهم في تلك الساعة فجاؤا الى معاوية وانّ عمراً ليكلمه في قتل أسراه : فقال له معاوية لو أطعناك في هؤلاء الاسارى لوقعنا في قبيح من الامر

ومنها اغراؤه له بقتال قيس بن سعد بن عبادة بعد تنازل الحسن له عن الخلافة وقد كان قيس من شيعة علي ومعه جيش كثيف كلهم مستقتل خوف الوقوع بعد صلح الحسن في يدي معاوية وكان قيس من أشجع الناس ودهاتهم في وقته فأبى معاوية حربه وأعطاه وأصحابه الامان. ولو حاربه لكان معه على خطر عظيم يعرفه عمرو بن العاص كما عرفه معاوية أيضا فلم يقع فيه

وبالجملة شايع عمرو معاوية وهو يحب لنفسه أكثر مما يحب له وأخذ مصر طعمة منه وكان بعد وقعة صفين والتباس الامور وقع الفشل في المسلمين وظهرت الفوضى في البلاد واختلف الناس على محمد بن أبي بكر في مصر وهو أمير عليها من قبل عليّ (رض) فاستشار معاوية أصحابه في أخذ مصر فأشاروا عليه بارسال عمرو وكتب الى شيعة عثمان بمصر فأجابه منهم مَسْلَمَة بن مخَلَّد ومعاوية بن خديج بسرعة العمل وبعث الامداد فسير عمراً ومعه عشرة آلاف مقاتل فتلقاه محمد بن أبي بكر بالفين فانهزم

ثم اختنق في خربة أخذه منها معاوية بن خديج وقتله وصفت مصر لعمرو ابن العاص في خلافة معاوية ولبث أميراً عليها نحو سنتين أو ثلاث وتوفي وهو امير عليها

ومن اخباره مع معاوية ما رواه ابن عساكر ان معاوية دعا عمرو بن العاص « يوم التحكيم » وهو متحزم عليه ثيابه وسيفه وحوله أخوته وأناس من قريش وقال ياعمرو : ان أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لايريده ونحن بك راضون . وقد ضُمّ اليك رجل طويل اللسان كليل المدية له بعدُ حظ من دين . فاذا قال فدعه فليقل ثم قل وأوجز . واقطع المفصل ولا تلقه بكل رأيك . واعلم ان خفي الرأي زيادة في العقل . فان خوّفك باهل العراق نخوفه باهل الشام . وان خوفك بعليّ خوفه بمعاوية. وان خوفك بمصر خوفه باليمن . وان أتاك بالتفسير فانه بالجمل :

فقال له عمرو يا أمير المؤمنين أنت وعليّ رجلا قريش ولم يقل في حربك ما رجوت . ولم تأمن ما خفت : ذكرت ان لعبد الله دينا وصاحب الدين منصور وايم الله لأبينن عِلّلَه ولأستخرجن خبيئه ولكن اذا جاءني بالايمان والهجرة ومناقب عليّ فما عسيت ان أقول :

فقال معاوية : قل ما ترى : فقال له عمرو فهل تدعني وما أرى : وخرج مغضباً فقال لاصحابه انما أراد معاوية ان يصغر أبا موسى لانه علم اني خادعه فأحب ان يقول : لم يخدع أريباً : فقد كذبته بالخلاف عليه وقال في ذلك شعراً

يشجّعني مُعَاوية ُبن حربٍ كأني للحوادث مستكين
واني عن معاوية غنيٌّ بحمدِ اللهِ واللهُ المعينُ

في أبيات

فلما بلغ معاوية شعره غضب من ذلك وقال : لولا مسيره كان لي فيه رأي : فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : أما والله انّ أمثاله من قريش لكثير ولكنك ألزمت نفسك الحاجة اليه فالزمها الغنى عنه

وأنت ترى من هذا ومما تقدم من أخباره معه انهما كانا متفقين ظاهراً متنافرين باطناً وانّ عمراً لم يشايع معاوية رضي الله عنه حبّاً به أو مودة له بل طلبا للرياسة ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً له منه يدلك عليه ماروي ان معاوية قال يوماً لجلسائه : ما أعجب الاشياء : فقال يزيد : أعجب الاشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والارض لا يدعمه شيء من تحته ولا هو منوط بشيء من فوقه : وقال آخر : حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل ، : وقال آخر أعجب الاشياء لم يرَ مثله : وقال عمرو ابن العاص : أعجب الاشياء ان المبطل يغلب المحق : (يعرض بعلي ومعاوية) فقال معاوية : بل أعجب الاشياء ان يعطي الانسان ما لا يستحق اذا كان لايخاف (يعرض بعمرو ومصر التي أخذها طعمة) فنفث كل منهما بما في صدره من الآخر وهذا يدل على انّ عليًّا رضي الله عنه لو تألف عمراً واستدناه اليه لانتفع به ولصدقه الخدمة أكثر منها لمعاوية ولكن اغراق عليّ في حب الفضيلة دعاه الى ترك الحيلة بمثل عمر كما دعاه الى عدم قبول اشارة من أشار عليه بتأليف معاوية وتثبيته على ولاية الشام كما سترى بعدُ

باب

نبذة من أقواله وأخباره

أقواله

رُؤي عمرو بن العاص بمصر وهو على بغلة قد شاب وجهها من الهرم فقيل له: أيها الامير تركب هذه البغلة : قال: اني لا أملّ دابتي ما حملتني. ولا زوجتي ما أحسنت عشرتي . ولا جليسي ما لم يصرف وجهه عني .

وروى ابن عساكر انه قال لابنه يوماً: يابني امام عادل، خير من مطر وابل، وأسد حطوم، خير من امام ظلوم، وامام ظلوم غشوم، خير من فتنة تدوم، يابني مزاحمة الاحمق خير من مصالحته، يا بني زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر، يا بني « استراح من لا عقل له » : فأرسلها مثلا

وروي أيضاً أن عمرو بن العاص قال يوماً لمعاوية : ان الكريم يصول اذا جاع، واللئيم يصول اذا شبع، فسد خصاصة (حاجة) الكريم، وأقمع اللئيم

وفي رواية أخرى له : قال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين لا تكون بشيء من أمور رعيتك أشد تعمداً لخصاصة الكريم حتى تعمل في سدها، ولطغيان اللئيم حتى تعمل في قمعه، (ازالته) واستوحش من الكريم الجائع، ومن اللئيم الشبعان، فان الكريم يصول اذا جاع، واللئيم يصول اذا شبع :

وهذا الكلام من بدائع الحكم ومن أسدِّ النصائح

وروي أيضاً عن هشام الكلبي عن أبيه قال : قال معاوية

لعمرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ قال من كان رأيه راداً لهواه . قال فمن أسخى الناس ؟ قال من بذل دنياه في صلاح دينه. قال فمن أشجع الناس؟ قال من ردّ جهله بحلمه :

وعن سفيان بن عُيينة . قال قال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ . ولكنه الذي يعرف خير الشرين

وروى ابن عساكر عن عمرو أنه قال : الرجال ثلاثة فرجل تام . ونصف رجل . ولا شيء ، فأما الرجل التام فالذي يكمل دينه وعقله فاذا أراد أمراً لم يمضه حتى يستشير أهل الرأي والالباب، فاذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه فلا يزال كذلك مضيه موفقا . والنصف رجل الذي يكمل الله له دينه وعقله فاذا أراد أمراً لم يستشر فيه أحداً وقال أي الناس كنت أطيعه أو أترك رأيي لرأيه .فيصيب ويخطئ : والذي لاشيء الذي لا دين ولا عقل له ولا يستشير في الامر . فلا يزال ذلك مخطئاً مدبراً ، ووالله اني لاستشير في الامر الذي أردته حتى خدمي .وما عليّ بعرض عقولهم وأسمع:

وسأله معاوية بن أبي سفيان : ما السرور ياأبا عبدالله ؟ قال الغمرات ثم تنجلي « كناية عن الخلاص من الشدة »

وعن سفيان بن عُيَيْنَةَ قال قال عمرو بن العاص :ماوضعت عند أحد من الناس سرّا فأفشاه فلمته. أنا كنت به أضيق صدرا حتى استودعته اياه:

ومن غرر أقواله ما نقله صاحب سراج الملوك وهو :

موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة

وهو قول حق أجمع عليه الحكماء وأيدته التجارب إلاّ أنه لا يسلم من كل الوجوه وانما هو ينطبق على من كان خسيس الفطرة دنيء النفس

يرتفع من حضيض المهانة بوسائط سافلة وأسباب غير طبيعية فهذا مهما بلغ من علو المكانة فانه بعيد عن الفضيلة لانه لم يستمسك في ارتفاعه باسبابها ، ولم يأت البيوت من أبوابها ، فيكون شراً في مبدإ أمره ، شراً في منتهاه ، ففي ارتفاعه شرٌّ على الناس لانه يستعمل نعمة الارتفاع آلة للاضرار بالناس ووسيلة للاستكثار من متاع الحياة الدنيا ولو من غير طرقه المشروعة لهذا نهى الحكماء عن توسيد المناصب العالية في الحكومة للسفلة لئلا يفسد السفلة أمرها ، ويوهنوا بنيانها ، ويرى بعضهم في هذا العصر لهذا السبب ان أحسن الدول حكومة وأضبطها ادارة وأسدها عملا وأسلمها من آفات الرشا وسوء القصد دولة انكلترا التي مع انها دولة ملكية مقيدة تشبه حكومة الاشراف الارستقراطية لانها قائمة على دعائم الاشراف وأهل الغنى والثروة لا توسد مناصبها العالية الا لاهل البيوتات العريقة بالمجد والامارة وهم القابضون على أزمة الدولة المباشرون لشؤونها العظمى وهذا وان كان يخالف من بعض الوجوه مذاهب الشعوب الديمقراطية والحكومات الشورية الا انه يوافق أصول التجارب وينطبق في كثير من الاحوال على مقاصد الحق والعدل والكلام عليه يحتاج الى بيان وتمحيص وربما نعود إليه في محل آخر ان شاء الله

هذا من جهة من ينطبق عليه قول عمرو بن العاص واما من جهة لا ينطبق عليه فهو الذي يرتفع باسباب طبيعية ونريد بالطبيعية الاستعداد والجد والعمل لا الطفرة والاتفاق أو التذرع بالوسائط السافلة غير المشروعة فان من يرتقي باستعداده وجده ويكون بطبعه عالي النفس سليم الفطرة يرتقي بحكم الاستعداد والفطرة من طريق الفضيلة فيكون فاضلا في مبدأ

أمره فاضلا في منتهاه فلا يستعمل ارتفاعه سلاحا يتهجم به على الناس بل بالعكس يستعمله لمعونة الناس فهذا لا مضرة من ارتفاعه بل ارتفاعه ضروري لازم بحكم العقل والعدل فلا يشمله معنى قول عمرو ولده لا يعنيه ولكن باللاسف ان أمثال هذا عددهم قليل ، في كل قبيل ،

خطبة له

رأينا في تاريخ ابن عساكر خطبة نفيسة لعمرو بن العاص من أحسن أقواله يوصي بها الناس بالقصد وعدم السرف وحسن معاملة القبط وصرف العناية الى خيل الجند بالقيام على تربيتها وسمنها وغير ذلك من الوصايا الجليلة النافعة رواها ابن عساكر عن بُحَيْر بن داخِر المَعافريّ قال :

ركبت انا ووالدي الى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد حم (كذا) النصارى بايام يسيرة فأطلنا الركوع اذ أقبل رجال بأيدهم السياط يؤخرون الناس فذعرت فقلت يا أبت من هؤلاء ؟ قال يابني هؤلاء الشرط . وأقام المؤذن الصلاة فقام عمرو ابن العاص على المنبر فرأيت رجلا قصير القامة أدعج أبلج [1] عليه ثياب موشية (أو موشاة) كأن بها العقيان تتألق [2] عليه . وعليه عمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم فسمعته يحض على الزكوة وصلة الرحم وينهى عن الفضول وكثرة العيال وقال في ذلك

يا معشر الناس اياي وخلالا اربعاً فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزّ . اياي وكثرةَ العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييعَ المال ، والقيل بعد القال ، في غير درك ولا نوال ، وثمّ انه لابد من فراغ يأول المرء اليه في توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، فمن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد [3] والنصيب الأقل ولايضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه عادلا ، يا معشر الناس

(١) الادعج اسود العين الابلج المضيء المشرق (٢) العقيان الذهب الخالص
(٣) أي بالاعتدال

قد تدلت الجوزاء وركبت الشعرى ، وأقلعت [١] السماء وارتفع الوفاء ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السمائم [٢] وعلى الراعي حسن النظار . فحيَّ بكم على بركة الله على ريفكم فتناولوا من خيره ولبنه ، ومرافقه وصيده ، وأربعوا بخيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فانها جُنَّتكم [٣] من عدوكم وبها تنالون مغانمكم وأثقالكم ، واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيراً . واياي والموسات [٤] المفسدات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم ، حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لكم منهم صهراً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم وغضوا ابصاركم . فلأعلمن ما أتاني رجل قد أسمن جسده وأهزل فرسه[٥] واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسهُ من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ، ولاشراف قلوبهم اليكم ، والى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة . حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله (ص) يقول (اذا فتح عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الارض) فقال له أبو بكر : ولم ذاك يارسول الله ؟ قال : (لانهم في رباط الى يوم القيامة) فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما أولاكم واقيموا في ريفكم ما بدا لكم . فاذا يبس الود ، وسحق العود ، وكثر الذباب وحمض اللبن وصوّح [٦] البقل وانقطع الورد فحيّ على فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن احد منكم على عياله الا ومعه تحفة لعياله على ما اطاق من سعته أو عسرته اهـ

---

(١) وأقلعت السماء اي كفت وهو كناية عن انقطاع المطر (٢) كذا في الاصل ولعلها السوائم وهي الماشية (٣) الجنة هي الوقاية (٤) الدواهر (٥) جواب قسم محذوف اكد بالنون الثقيلة وما مصدرية اي فوالله لاعلمن اتيان رجل موصوف بما ذكر وفي طيه من الترهيب البليغ ما لايخفى وقد بين بعدُ جزاء من فعل ذلك بقوله فمن أهزل فرسه الخ (٦) صوح اي يبس اعلاه



﴿ أخباره ﴾

(من أخباره في حسن الخلق) ما رواه ابن عساكر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر قال صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين طريقاً ولا أحلم جليساً منه :

وعن قبيصة أيضاً : قال صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلا أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله ولا أحسن مدارة منه ،

وصحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجلا أعطى لجزيل من غير مسئلة منه ،

وصحبت معاوية بن أبي سفيان فما رأيت رجلا أثقل حلما منه

وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين (أو قال أنصع) طريقا منه ولا أكرم جليسا ولا أشبه سريرة بعلانية منه

وصحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لايخرج من باب منها الا بالمكر لخرج من أبوابها كلها :

ونادت أمراته مرة جارية لها فابطأت فقالت يازانية : فقال لها عمرو أو رأيتها تزني ؟ قالت لا . قال لتضربنّ بها يوم القيمة سبعين سوطا : فطلبت من الجارية العفو فقال يصح العفو اذا اعتقتها فاعتقتها

(ومن أخباره) التي تدل على علمه وتعقله و بعده عن الاوهام ما رواه ابن عساكر عن موسى بن علي قال سمعت أبي قال : كنت مع عمرو بن العاص بالاسكندرية فانكسف القمر فاصبحنا مع عمرو فقال له رجل من القوم لقد حدثنا شيطان هذه المدينة ان القمر سيكسف من الليلة : فقال رجل من الصحابة كذب عدو الله هذا . هم علموا ما في الارض فما علمهم ما في

النساء ؛ قال فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له : انما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون : ثم قرأ الآية (إن اللهَ عنده علمُ الساعةِ ويُنزّلُ الغيث ويعلمُ ما في الارحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت) إلى آخر الآية

ولا شك أن هذا الدليل الكتابي يفحم الرجل بل وينبه كل غافل جاهل بسنن الله وحكمة الخلق اذ الله تعالى لم يحجب عن العقل شيئا من أسرار الوجود ولم يحرم على الانسان أن يتناول بالبحث والنظر ما شاء من مجالي الطبيعة وأرشده الى أنّ الغيب الذي يعلمه الله وحده هو غير ما يتوهمه العقل أحياناً عند تضاؤله عن إدراك الشيء وضعفه عن الوصول اليه

وحبذا لو تنبه الى حكمة الله هذه الذين يقولون هذا حلال وهذا حرام ويحولون بين المرء وعقله بغياً من عند أنفسهم وتحكماً في الدين وصرفاً للأمة عن الاخذ بالعلوم النافعة التي قام بها الآن مجد الأمم وأصبح المحرومون منها على وشك العدم وليس بعد شاهد العيان برهان

(ومن أخباره) مارواه صاحب الاغاني قال حضرت وفود الانصار باب معاوية بن أبي سفيان فخرج اليهم حاجبه أبو درة فقالوا له استأذن للانصار فدخل اليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو ماهذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد القوم الى أنسابهم . فقال «أي الحاجب» هي كلمة ان مضت عرتهم ونقصتهم وإلاّ فهذا الاسم راجع اليهم: فقال له « أي عمرو » أخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل فقالها الحاجب . فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الانصار . فنظر معاوية الى عمرو نظرَ منكر فقال له باعدت جدا . فقال اخرج فقل من كان ههنا

من الاوس والخزرج فليدخل : فخرج فقالها فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الانصاري وهو يقول :

يا سعد لا تجب الدعاء فما لنا نسبٌ نجيب به سوى الانصار

نسب تخيَّره الاله لقومنا أثقل به نسباً الى الكفار

ان الذين ثووا ببدر منكمُ يوم القَلِيب هم وقودُ النار

فقال معاوية لعمرو : قد كنا لأغنياء عن هذا اه

ولا ندري ان كان أراد عمرو بهذا المباعدة بين معاوية وبين الأنصار اتماماً لمقاصده السياسية في إغراء مثل الانصار بمعاوية أو هو يريد الحط من قدر الانصار فقط لانهم شايعوا عليّ بن أبي طالب أيام الفتنة خلا النعمان بن بشير فانه كان من شيعة معاوية يومئذ

(ومن أخباره في استعطاف الخاطر والاعتذار) ما رواه محمد بن سعيد عن ابراهيم بن حويطب ونقله في العقد قال· قال عمرو بن العاص لعبدالله بن عباس بعد قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.ان هذا الامر الذي نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاء وقد بلغ الامر بنا وبكم الى ما ترى وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبراً ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكنا نقول ليتها لم تكن كانت فانظر فيما بقي بغير مامضى فانك رأس هذا الامر بعد عليّ فانك أمير مطاع ومأمور مطيع ومشاور مأمون وأنت هو :

وليس أحسن من هذا الكلام تملصاً واعتذاراً ولا أبلغ منه في رأب الصدع وجمع القلوب . وقد نقل في العقد خبرا آخر عن عمرو وابن عباس فيه من التهاتر والسباب ما يدل على وضعه فلم نشأ نقله أدبا مع أولئك الرجال

(ومن أخباره في التقى والانابة) ما رواه ابن عساكر عن عمرو بن

شعيب عن أبيه قال : وقع بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص كلام في الوهط (وهو بستان لعمرو بالطائف) فسبه المغيرة فقال عمرو بن العاص : يال هصيص يسبني المغيرة : فقال له عبد الله ابنه : انا لله وانا اليه راجعون أدعوة القبائل وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : فأعتق عمرو ابن العاص ثلاثين رقبة عنها

وطالما كان يتحاشى هذه الدعوة كبار الصحابة لما فيها من تفريق الكلمة والرجوع الى العصبية وقد نهى عنها رسول الله أشد النهي جمعاً لكلمة الامة واستمساكا بوحدة الدين وتأليفاً للقلوب ولكن تهاون الناس بهذه الرابطة الكبيرة فرق بينهم في المشارب والاهواء والغايات فانقلبت الأمة حربا على بعضها يتجاذبها الامراء أو المتوثبون على الملك تارة باسم الجنسية وأخرى باسم المذهب وآونة باسم الدين حتى أنهكوا قواها وذهبوا بآثار مجدها وسطوتها ولا يزال كثير منهم لهذا العهد ينتحلون أسباب التفريق انتحالا توصلا للرياسة ولا سيما في شبه جزيرة العرب التي تفرق أهلها قدداً وجماعات واصبحوا فوضى مع أهواء الامراء العديدين وقد كانت أحق بان يجمع أهلها رابطتا الدين والجنس كما جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم على كلمة الاسلام فعملوا بقوة اجتماعهم مالم تستطع عمله أمة قط ولكن أين من يعقل والاهواء غالبة والعلم بمجرى السنن الطبيعية مفقود والنفوس عن الاتعاظ بما لحق أكثر الثغور العربية من الاحتلال الاجنبي غافلة والله أعلم بعاقبة الامور

وأخرج بن عساكر عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص ان عمرو بن العاص كان يسرد (يتابع) الصوم وكان يقول سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول « ان فصلا بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر » :

وروي عن ربيعة بن لقيط قال : سمعت عمرو بن العاص وهو يصلي بالليل وهو يبكي ويقول : اللهم آتيت عمراً مالا فان كان أحب اليك ان تسلب عمرا ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وانك آتيت عمرا أولادا فان كان أحب اليك ان تثكل عمرا ولده ولا تعذبه بالنار فاثكله ولده . وانك آتيت عمرا سلطانا فان كان أحب اليك ان تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه .

(وفاته وولده)

(وفاته وكلمة مجملة فيه)

قضى عمرو بن العاص حياته كلها بالجد وطلب العلاء كما رأيت فما قصد غاية الا بلغها ولم يبال بالعقبة تقوم دونها وكان له بين ذلك هنات تغتفر له في جانب جهاده العظيم في فتوح مصر وغيرها ولا يلام على شيء من أمور الفتنة التي انغمست فيها قريش كلها وساقوا الأمة اليها الا بما يلام به سائرهم وانما هو سبقهم باعماله الكبار بالاضافة الى شهرته بالدهاء وحبه للظهور ومهما ترتب على اعماله تلك من النتائج في مستقبل الدولة فانه غير مقصود له بالذات كما أبنا ذلك فالعدل والحق يقضيان على من عرف تاريخ الرجل ان يقر له بثبات الجاش وقوة الارادة وصدق العزيمة والرأي وانه من رجال الاسلام العظام وحسبه انه كان من اعوان عمر بن الخطاب وامرائه الكبار وعمر رضي الله عنه لا يضع ثقته بغير الاكفاء كما هو معروف عنه ونحن

لانشك كما لا يشك عاقل معنا في أن ممالأته على علي بن أبي طالب انما كانت لاعراض هذا عنه ولو رغب فيه لوجد منه من صدق الخدمة وجميل الصحبة ما وجده عمر ومعاوية وانما كان علي رضي الله عنه قليل العناية بامثال عمرو من رجال السياسة أولاً لثقته من نفسه وثانياً لكونه يرى سلوك السبيل السوي في القول والعمل خير صاحب ومعين وهو اعتقاد حق لا يعتقد غيره من كان مثل علي بن أبي طالب وفي مرتبته من الفضيلة لكنه رضي الله عنه لم ينظر الى ما اكتنفه من الاحوال وما أحاط به من الدسائس لاسيما وان البيئة في وقته صارت غيرها في زمن أبي بكر وعمر ومع ذلك فقد كانا يسيران سير الوجل ويدفعان في كل وجهة صاحبها ويتألفان قلوب الرجال الذين يشك في صدقهم وصداقتهم كما تألف رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوب المنافقين مع انهم من اعداء الدين

وبالجملة فعمرو بن العاص يعد على حسن بلائه في الاسلام وسلامة يقينه من دهاة الامة في عصره وكبار رجالها الذين افتتحوا الممالك ورفعوا منار الدولة لاسيما وانه كان على جانب من التقى لا ينكر على مثله كما تقدم وكان شديد الرهبة من الله والخوف مما بعد الموت كما يظهر ذلك من أقواله التي فاه بها قبيل وفاته رحمه الله ورضي عنه

وروى ابن عساكر عن ابن شماسة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في ساعة الموت وولى وجهه الى الحائط وجعل يبكي طويلا فقال له ابنه: ما يبكيك أما بشرك رسول الله (ص) بكذا اما بشرك رسول الله بكذا ؟ قال : ثم أقبل بوجهه فقال : ان أفضل مايعد عليّ شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله . اني قد رأيتني على اطباق ثلاثة : لقد رأيتني وما أحد

من الناس أبغض اليّ من رسول الله (ص) ولا أحب اليّ ان أكون استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال كنت من أهل النار ، فلما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول ابسط يدك لا بايعك فبسط يمينه فقبضت يدي ، فقال «مالك ياعمرو» فقلت أردت ان أشترط . فقال «تشترط ماذا» قلت ان تغفر لي ماتقدم . قال « اما علمت يا عمرو ان الاسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وان الحج يهدم ما كان قبله ؟ » فبايعته فما كان احد أجل في عيني منه اني لم أكن أستطيع ان املأ عيني منه اجلالا له فلو مت على تلك الحال لرجوت ان أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء لا أدري ماحالي فيها فاذا أنا مت فلا تتبعني نائحة ولا نار فاذا دفنتموني في قبري فسنوا على التراب سنا (أي صبوه صبا) فاذا فرغتم من دفني فأقيموا عند قبري قدر ماينحر جزور ويقسم لحمها حتى أعلم ما اراجع به رسل ربي فاني استأنس بكم اه وروي هذا الخبر أيضا من طرق أخرى باختلاف قليل في اللفظ

وروي عن حميد بن عبدالرحمن عن عبدالله بن عمرو ان أباه قال حين احتضر : اللهم انك أمرت بأمور ونهيت عن أمور ، تركنا كثيرا مما أمرت ووقعنا في كثير مما نهيت اللهم لا اله الا أنت : ثم أخذ بإبهامه فلم يزل يهال حتى مات : وفي رواية انه وضع يده موضع الغل من ذقنه ثم قال : اللهم أمرتنا فتركنا ، ونهيتنا فركبنا، ولا تسعنا الا مغفرتك ، : فكانت تلك هجراه حتى مات

وكانت وفاته بمصر يوم الفطر سنة ثلاث واربعين في خلافة معاوية وهو متجاوز السبعين وقيل انه تجاوز الثمانين ودفن في المقطم في جهة الفج

وكان طريق الحجاز كما ذكر ذلك ابن قتيبة وكان عمرو قصيراً يخضب بالسواد وكان غنياً جدا على ما يظهر من سيرته وقد روى ابن عساكر ان عمراً كان يقيم كروم الوهط (بستان له بالطائف) بالف الف خشبة كل خشبة بدرهم فالكرم الذي يحتاج الى خشب بمليون درهم كم تكون غلته هذا اذا صح الخبر. وقد كان له دور كثيرة منها داره بمصر وتعرف بدار عمرو قرب الجامع وكان له دور بدمشق منها دار بجيرون ودار في ناحية باب الجابية بين دار السعادين وزقاق الهاشميين ودار تعرف بدار بني أحيحه أو بني جحيحة في رحبة الزبيب ودار تعرف بالمارستان الاول عند عين الحمى كذا جاء في تاريخ ابن عساكر وقد ذكر المؤرخون من مقدار ثروته مالا يقبله العقل فضربنا صفحا عن ذكره

ولده

ولد له عبدالله ومحمد وكان عبدالله يكنى أبا محمد وأسلم قبل أبيه وكان عاقلا فاضلا شجاعا يضرب بسيفين وكان يقرأ بالسريانية وقد نهى والده عن دخول الفتنة وأشار عليه باعتزالها كما رأيت فيما مر طلباً للسلامة وتوفي بمكة عن اثنتين وسبعين سنة وله عقب من زوجه عمرة بنت عبيدالله ابن عباس وعمرو بن شعيب وكان سريا ربما قسم في المجلس الواحد من صدقة جده خمسين ألفا كما ذكر ذلك ابن قتيبة اهـ

انتهى الجزء الثالث وهو يشتمل على سيرة أشهر مشهوري الرجال في دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين. وقد أبطأت باصدار هذا الجزء لمرض ألم بي يقضي علي بتخفيف المطالعة ومراعاة الراحة فأرجو من القراء المعذرة وأسأل الله أن يعينني على اتمام الاجزاء التالية انه أكرم مسؤول

أجوبة انتقاد

انتقد علي كثير من أصدقائي ورود خطأ كثير في الجزء الثاني غير ماأصلح في فهرس الخطأ والصواب واستكثروا أيضا ماورد في ذلك الفهرس وعذري في ذلك أبنته في آخر الجزء وهو المرض الذي ألم بي في أثناء كتابة الجزء وعدم تمكني من مراجعته وتصحيحه حتى في حال الطبع وسأعيد طبعه مصححا مضبوطا ان شاء الله تعالى (١)

وطلب الي بعضهم التوسع في أخبار الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية والخروج عما شرطته على نفسي في خطبة الكتاب قائلا بعد كلام طويل (انك مهدت في تاريخك هذا طريقا وعرة للمؤرخين والكتاب في اطلاق حرية الفكر والقلم من أسر التقليد والقاء الكلام على عواهنه وسرد الحوادث سردا لا تظهر منه حقيقة تاريخ الاسلام . وكما انك السابق بين مؤرخي المسلمين من أهل العربية في تحكيم العقل في أخبار التاريخ وتتبع مواضع النقد وبيان الاسباب والنتائج على أسلوب قد أشربته العقول وسيكون قدوة لمؤرخي المسلمين وهذا ماتمناه فانا نسألك أن تقد لنا ذلك القيد الذي قيدت به نفسك في صدر الجزء الاول ولا تضن بالتوسع في أخبار الفتن التي أشرت اليها لان التوسع بها وحدها توسع في تاريخ الاسلام كله الخ م قال

وجوابنا عنه اني مع الشكر لحسن ظن ذلك الفاضل بي أعترف بأني أضعف من خط القلم وكتب في التاريخ وكل ماعلقته على الحوادث من النقد والبيان انما هو نتيجة الجرأة واطلاق الفكر من أسر التحفظ الشديد وإلا

(١) أعيد طبع الجزء مصححاً على قدر الامكان

فان حوادث تاريخ الاسلام مكتوبة في ثنايا الكتب في أجلى مظاهر الحقيقة اذ لم يضن المؤرخون علينا بشيء من غثها والسمين فهم أصحاب الفضل واليهم يساق الثناء جزاهم الله عنا خير الجزاء وما كتبوه من أخبار الصدر الاول يدل على اغراق في حرية القلم وبيان الحقيقة ما أظننا نستطيع ان نقفو به أثرهم في هذا العصر اذا أراد أحدنا ان يكتب تاريخ واحد من الملوك من معاصريه . وانما تجنبوا البحث في الاسباب والنتائج وتعليق آرائهم الخصوصية على الاخبار لاسباب عديدة لا تخفى على من له وقوف على أحوال المسلمين وشدة ما أوجده علماؤهم من الارتباط الشديد بين الدين والسياسة حاشا المعتزلة والشيعة فانهم علقوا على أخبار الصدر الاول أفكارهم الخصوصية لكن من جهة دينية لا من الجهة الاجتماعية والسياسية وغلوا في ذلك غلوا شديدا ولا سيما الشيعة حتى ظهر التحامل على كلامهم ظهورا لم يبق له ادنى اعتبار عند من سواهم ولله در امام المؤرخين وفيلسوف العمران العلامة ابن خلدون الذي سبق كل كتاب المسلمين والمؤرخين باستقصاء فلسفة التاريخ في مقدمته الشهيرة فكان خير قدوة لمن كتب ويكتب بعده في هذا الباب سواء من أهل المشرق أو من الافرنج الا انه افرد آراءه الخصوصية بمقدمة تاريخه المشهورة ولم يأت بها في غضون التاريخ لمخالفته في هذه الطريقة لما يترتب على الاتيان بالشواهد في محلها ومحاكمة الخبر عند ايراده من الاثر النافع في النفوس وان أكن انا وأمثالي عالة عليه لا ندرك له شأوا في الآراء العالية والمذاهب الصحيحة واني يدرك الظالع شأو الظليع

واني لما رأيتني أشعر بالحاجة الى التوسع في تاريخ الصدر الاول كما

شعر بها ذلك الفاضل تبسطت في بعض المواضع من هذا الجزء أكثر مما اشترطته على نفسي مراعيا فيما قلت ونقلت جانب الادب وحسن الاداء الواجب على المؤرخ الذي لاغرض له مع شخص بعينه أو فريق مخصوص وانما غرضه بيان الحق وتوخي الحقيقة فان أخطأت في شيء مما قلت فاستغفر الله منه وانما هو رأي أبديه فلا يؤاخذني المخالفون لي في هذا الرأي لاني مؤرخ لامتكلم ولا جدلي ولا فقيه . وسألم في بقية الكلام على الصدر الاول بشيء مما بدأت به رغم تكلفي تجنب الخوض في أخبار القوم وأراعي على قدر الامكان ما أخذته على نفسي من التأدب وعدم الاسترسال في النقل اجابة لرغبة الراغبين والله الموفق والمعين

وطلب مني فاضل من أفاضل بيروت ان أوفق بين ما نقلته في الصفحة ٨٦ من الجزء الاول من قول أبي بكر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت أكبر مني وأكرم وأنا أسن منك : وبين ما نقلته في الصفحة ١٢٧ من أن أبا بكر توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة مع ان من الثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة فيكون أكبر سنا من أبي بكر بما يوازي مدة خلافته بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهي سنتان وثلاثة أشهر وبضعة أيام

والجواب عن هذا ان التوفيق معتذر في الحقيقة مالم يثبت ان أبا بكر توفي وله من العمر أكثر من ثلاث وستين والاكثر على انه لم يتجاوز هذا السن واما رواية يزيد بن الاصم فهكذا نقلها السيوطي عن أحمد وابن عساكر ولكن جاء في رواية أخرى لابن أبي شيبة ولابن عساكر أيضا ان الذي سئل وأجاب هو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم لا أبو بكر

وتنبيه المنتقد الى ما نبهنا اليه يرجح ان الرواية الثانية هي الاصح وقد كنت قصدت ان أشير في هامش الكتاب الى هذه الرواية لما ذكرت الرواية الاولى فأنسيت على ذلك فللمنتقد الشكر على التنبيه لهذا الامر

وانتقدت علي مجلة المقتطف الغراء اختصاري في الكلام على فتح مصر في الجزء الثاني مع أني ذكرت في نفس الفصل الذي كتبته ثمة عن فتح مصر ان فتحها لما كان عن يد عمرو بن العاص فقد دعاني ذلك لترك الاستفاضة في الكلام على فتحها الى سيرة عمرو والظاهر ان المنتقد لم ير تلك الجملة لهذا أخذ علي ذلك الاختصار وقد بسطت الكلام على فتح مصر في هذا الجزء بسطا أرجوي أن يكون وافيا بالغرض

وانتقد علي المقتطف أيضا انكاري على المتأخرين ذكرهم خبر خالد ابن الوليد ولحاقه بأهل دمشق وقتالهم وجزمي بأنه خبر باطل لم يرد في تاريخ من التواريخ الاسلامية الصحيحة فرأى المقتطف انه ورد في تاريخ اسلامي وهو فتوح الشام المنسوب للواقدي واني نقلت عنه أخبار فتح الشام فكيف أنكر هذا الخبر وعين الصحف التي ورد فيها ذلك الخبر من الكتاب المذكور ولعل الكاتب الفاضل لم يساعده الوقت على قراءة ما قلته في افتتاح الكلام على فتح دمشق من اني نقلت أخبار الفتح عن تاريخ الطبري فلو قرأ ذلك الفصل برمته وطبق ما أوردته عن أخبار فتحها على الطبري لوجده منقولا عنه حرفا بحرف . ولعله لم يستقص أيضا الفصل الذي ورد تحت عنوان (بطلان خبر) كله ولم ير ما قلته فيه (من ان ذلك الخبر لم ينقله أحد من ثقاة المؤرخين من المتقدمين فربما يكون نقله المتأخرون عن كتب القصاصين كفتوح الشام وأمثاله) ولو قرأ هذه الجملة لما استند في تأييد

الخبر على فتوح الشام الذي وهنت خبره في نفس الفصل واني مع شكري للمقتطف على اعطائه كتابي نصيبا من الانتقاد وحظاً من العناية التي تدل على احلاله منه محل القبول استسمح كاتبه الفاضل من أخذي عليه اعتماده كتاب فتوح الشام من التواريخ الوثيقة مع انه كتاب من كتب المغازي والقصاصين التي لم يعرف واضعوها الى الآن وانما نسب هذا الكتاب الى الواقدي لكثرة ما عرف عن الرجل من رواية الاخبار ، هذا من وجه ومن وجه آخر فان الثقاة من أهل الاخبار والمحدثين يوهنون رواية الواقدي فلو فرض صحة نسبة الكتاب اليه فانه عندنا غير موثوق ولنا مندوحة عنه بمثل تاريخ الطبري الذي هو أعظم تاريخ كتب في القرون الاولى ويتلوه غيره من كتب التاريخ الوثيقة وكلها لم تذكر ذلك الخبر : وفي كل حال أشكر مجلة المقتطف التي أخذت بانتقاد كتابي دون كثير من المجلات التي كنت أتمنى لو تحذو حذو المقتطف الاغر لما في ذلك من التعاون على استجلاء الحقائق التي هي مرامي أفكار الباحثين :

انتهى الجزء الثالث بحمد الله

فهرست

الجزء الثالث من أشهر مشاهير الاسلام



*